القرار

«رواية»

obeikandl.com

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م

مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع

مؤسسة الرسالة بيروت - شارع سوريا - بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٣١٩٠٣٩ - ٢٤١٦٩٢ - ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

obeikandl.com

القرار

«رواية»

تأليف
داود سلمان العبيدي

مؤسسة الرسالة

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

١- اللجْنَة ...

obeikandl.com

اندفع السيد صبحي حميد شريف يصعد السُلّم قفزاً وهو يسأل الحارس:

ـ هل اجتمعت اللجنة؟

هل حضر مدير الإدارة؟

كان تايه، الحارس، قد استند إلى الباب الخارجي، وراح يتابع حركة السيد صبحي الرشيقة الشابة دون أن يكلف نفسه عناء الإجابة عن أسئلته التي انقطعت عندما بلغ الطابق الثاني من البناية. كانت إضاءة الطابقين الأول والثاني رديئة.. فلما بلغ الطابق الثالث، رأى الإضاءة جيدة.

وقف السيد صبحي أمـام غرفـة السيد مدير الإدارة، يستـرد أنفـاسـه، ويسـوّي هندامه.. ثم أخرج مشطاً صغيراً أبيض وراح يمشط شعـره الأشقـر المتموج. ثم تقدم بعد أن أعاد المشط إلى الجيب الصغير فوق الصدر وطرق الباب.. ودخل قبل أن يسمع الجواب.

ـ السلام عليكم..

ـ وعليكم السلام..

ردَّ اثنان من أعضاء اللجنة السلام، أحدهما لم يتجاوز صوته شفتيه. أما مدير الإدارة، فقد رفع رأسه، ونظر إلى السيد صبحي لحظات، ثم نظر إلى ساعته وقال:

ـ لقد تأخرت.

اندفعت يد السيد صبحي إلى ربطة العنق بارتباك، وقال باعتذار:

ـ لقد تأخرتُ بسبب سيارات المصلحة.. و.. و..

ـ بلا واوات ولا اعتذارات..

الموظف الجيد يحافظ على الموعد مهما كلف الأمر.. ثم خفض رأسه ينظر إلى الملف الذي أمامه وأضاف:

ـ انتهينا من اختيار الأسماء.. ولم يبق إلا صياغة القرار.

وضرب بكلتا يديه على الملف وهو يدفع كرسيه الدوار إلى الخلف ويصيح:

ـ سبتي.

كان مدير الإدارة، يرتدي بدلة بنية اللون، ويضع أمامه علبة سيكاير أجنبية. كان يجلس وراء منضدة رمادية احتلت الجزء الخلفي من الغرفة المستطيلة التي طليت جدرانها باللون الأزرق الفاتح. وانتشر الضوء الفضي من مصباحين كهربائيين على شكل أنبوبين طويلين في أعلى الجدارين المتقابلين. الشباك الكبير الوحيد، يقع وراء المدير، وقد أسدلت عليه ستائر قرمزية سميكة مطرزة الحواشي بخيوط لامعة من نفس اللون. على يمينه هاتف أزرق اللون إيطالي الصنع، ثم مزهرية صغيرة احتوت عدة أوراد ذابلة.

ـ سبتي.

ـ نعم أستاذ.

دخل سبتي ابن نشمية الغسالة يحمل أقداح الشاي في صينية معدنية ممسوحة لم يبق من لونها شيء. كان يحمل ثلاثة أقداح من الشاي.. فلما نظر إلى الحاضرين تمتم متعجباً:

ـ أربعة..؟!

ثم عاد قبل أن يقدم أي قدح إلى الحاضرين.. فضحك السيد عبدالفتاح وقال:

ـ هكذا تكون العبقرية.

ونظر الحاج إسماعيل إلى ساعته وقال:

ـ دعوني أصلي المغرب في الغرفة المجاورة.

فاشار المدير بيده:

ـ اشرب الشاي أولاً.

عاد سبتي يحمل أقداح الشاي، ثم وقف متردداً، وأخذ يعد الحاضرين:

ـ ثلاثة.. أربعة..

ثم نظر إلى أقداح الشاي وقال:

ـ إنها أربعة أيضاً.

قدم القدح الأول إلى مدير الإدارة والذاتية، بعد أن مسح جانب الزجاجة السميكة التي تغطي المنضدة بكمه وهو يقول بصوت خفيض:

ـ الأستاذ أولاً.

كان المدير يرتاح لهذه الكلمة، بل ينتشي، بل يشعر بموجة من

الغرور تملأ نفسه وتنسيه، ولو لحظات جميع مشاكله!

ثم قدم القدح الثاني إلى سكرتير اللجنة، السيد عبدالفتاح محمد عبدالله. وقدم الثالث إلى الحاج اسماعيل ثم تلفت يمنة ويسرة.. ووقف متحيراً ومتسائلاً بصوت كالمبحوح:

ـ كنتم أربعة؟!

فضحك السيد صبحي وقال:

ـ أنا هنا..

استدار سبتي، وقدم له قدح الشاي دون أن يتفوه.

كان السيد صبحي جميلاً أنيقاً جذاباً، يرتدي بدلة زرقاء تحتها قميص أبيض، ورباط عنق أحمر تنتشر عليه نجوم زرقاء داكنة وأخرى بيضاء ساطعة. كان يتمتع بروح شفيفة رفيفة فكهة جذابة.

تناول قدح الشاي وسأل سبتي مازحاً:

ـ كيف استطاع حسام أن يهزم فتاح الفال؟

ـ عندما مرَّ فتاح الفال من زقاقنا.....

اعتدل سبتي واقفاً، حاملاً الصينية بيده اليسرى. وأراد أن يستمر في سرد الحكاية التي كان يعيدها من بدايتها كلماسأله السيد صبحي عنها!!

ولكن المدير قاطعه قائلاً:

ـ اذهب وقل لتايه يأتِني بعلبة سيكاير.

ـ جمهوري؟

ـ بغداد.. علبة سيكاير بغداد.

أشار عبدالفتاح بيده:

ـ قدح ماء من فضلك.

خرج سبتي متعثراً، لا يدري بأيهما يبدأ.. أبالذهاب إلى تايه أم بإحضار كأس الماء؟! ولكن أوامر المدير قضت على تردده:

ـ سيكاير بغداد.. لا تنس.

فأسرع إلى المصعد الكهربائي، ناسياً أن يعيد الصينية إلى مكانها!

تململ السيد عبدالفتاح، ثم نهض واقفاً وهو يقول:

ـ لا نستطيع أن نكلف سبتي بحاجتين في آن واحد.

فضحك السيد صبحي وأضاف:

ـ إن الانسان يحتاج إلى الترويح عن نفسه أحياناً.

ـ دائماً.

هتف المدير، وقد فتح كفيه وهبط بهما على الملف الذي أمامه، مما جعل الملعقة الصغيرة تقفز قليلاً من صحن الشاي ثم تعود فتحدث، رنيناً قضت عليه موجة الضحك التي غمرت المدير والسيد صبحي..!

قال الحاج اسماعيل وهو يعيد القدح فارغاً إلى الصحن الصغير الذي كان ينتظر على الطاولة:

ـ سأصلي المغرب في الغرفة المجاورة.

. . . . . .

كانت سجادة قديمة بالية تغطي أرض الغرفة، ومدفأة علاء الدين ترسل دائرة من اللهب الأصفر عدا منطقة صغيرة على شكل

قوس هزيل من اللهب الأزرق. كان السيد صبحي قد قرب المدفأة وراح يمرر كفه اليسرى فوقها، بينما حمل قدح الشاي بيده اليمنى، وراح يرتشف منه ويتلذذ بطعمه. أما المدير، فقد أخذ يقلب أوراق الملف الذي أمامه، تاركاً قدح الشاي ينتظر والحرارة تتسلل مع البخار المتصاعد منه!

عاد السيد عبدالفتاح وهو يمسح يده بمنديل أبيض طواه جيداً ووضعه في جيبه، وجلس في مكانه تحت التقويم المعلق على الحائط والذي يشير إلى اليوم السابع من شهر ذي الحجة ١٣٨٧ هجرية.. اليوم السابع أيضاً من آذار ١٩٦٨ ميلادية..!

وقبل أن يشرب الشاي قال متسائلاً:

ـ هل نعيد قراءة الأسماء؟

ثم تناول القدح وراح يشرب بهدوء.. وانتبه المدير إلى قدحه، فمد يده إلى الملعقة، وغمسها في الشاي وراح يديرها.. ثم رفع القدح إلى فمه وأخذ رشفة وقال:

ـ بارد.

ثم سأل:

ـ أين الحاج اسماعيل؟

وقبل أن يسرع السيد صبحي بالجواب، دخل الحاج اسماعيل وهو ينفض سرواله عند الركبة ويقول:

ـ أكثر من عشرة أسماء كان يجب أن يكونوا ضمن المقبولين. فلما جلس أجابه المدير:

ـ إن العدد محدود.. لا نستطيع أن نتجاوزه.

ـ إن مهمة اللجنة أن تختار الأفضل.. كفايةً وعلماً وذكاءً..

لماذا تشلكت اللجنة وأجري الاختبار؟

لماذا تريد أن تحملنا أمراً ليس لنا فيه رأي ولا اختيار؟

ضحك المدير بوجهه الأسمر، ورفع قدح الشاي يفرغ ما بقي منه في فمه، وقد ظهرت تحت شفته السفلى من الجهة اليمنى مجموعة صغيرة من الحبيبات الداكنة من أثر الحلاقة.. أو من أثر الحساسية. وبصوت خفيض وإشارة من يده التي لا تتوقف عن الحركة كلما أراد أن يتكلم.. كأنه يعلِّم، أو كأنه يذيع سراً قال:

ـ يا أستاذ.. يا أستاذ.. لا بد أن يتحلى الإنسان بشيء من المرونة.. توصيات الأصدقاء يجب أن تؤخذ بنظر الاعتبار!!

ـ أصدقاء؟!!

ضحك السيد صبحي عندما لم يستطع أن يفسر مراد الحاج اسماعيل عندما نطق كلمة: أصدقاء؟!. كانت مزيجاً من الإتهام والاستفهام والاستنكار والألم والسخرية!!

عاد السيد عبدالفتاح يقول، وكأنه يريد أن ينهي المناقشة:

ـ هل نعيد قراءة الأسماء؟

ـ اقرأ القرار.

وضع المدير السيكارة في فمه، وألقى العلبة الفارغة في سلة المهملات، ثم أشعل السيكارة بعود من الثقاب وراح يستمع إلى السيد عبدالفتاح وهو يقرأ القرار:

ـ استناداً إلى الأمر الإداري المرقم ت ل/٤٥٧٣ والمؤرخ في ١٩٦٨/٢/٢٥. اجتمعت اللجنة المشكلة بموجب الأمر الإداري المذكور أعلاه برئاسة السيد خالد عبدالمجيد صالح مدير الإدارة والذاتية وعضوية كل من السادة اسماعيل أحمد منصور وعبدالفتاح محمد عبدالله وصبحي شريف حميد.

قاطعه السيد صبحي مصححاً:

ـ صبحي حميد شريف.

أخرج السيد عبدالفتاح قلم الحبر، وصحح الاسم ومضى يقرأ:

ـ وصبحي حميد شريف. وبعد الاطلاع على نتائج الاختبار ومقابلة السادة المذكورة أسماؤهم في الجدول المرفق قررت اللجنة ترشيح السادة المذكورة أسماؤهم أدناه للتوظيف بالرواتب والعناوين المذكورة إزاء كل منهم اعتباراً من تاريخ مباشرتهم الوظيفة.

ثم تلا أسماء المقبولين..

قال المدير، وهو ينقر بإصبعه على الزجاجة التي تغطي المنضدة:

ـ أرى أن تغير كلمة «للتوظيف» بكلمة «للتعيين»..

أيد السيد صبحي اعتراض المدير بهزة من رأسه.. فقام السيد عبدالفتاح بالتصحيح اللازم.. ثم أضاف:

ـ هل نوقع القرار؟

أشار الحاج اسماعيل بيده:

ـ ليس الآن.

ثم التفت إلى المدير:

ـ ربما ينسحب بعض المقبولين، فعلينا أن نرشح عدداً آخر. . احتياطاً.

انتبه المدير إلى الناحية التي أثارها الحاج اسماعيل، فأسرع يخرج رقاع التوصية من جيبه. . فنهض الحاج اسماعيل منفعلاً وهو يقول:

ـ أرجوك. .

ثم وضع يده على الرقاع وهو يضيف:

ـ أرجوك. . أترك لنا حرية الإختيار في هؤلاء.

أح أح المدير وهو يستجيب على كره وقال:

ـ نأخذ الأسماء الخمسة الذين حازوا أعلى الدرجات في الإختبار. . عبدالله ابراهيم، وسعد جاسم، ونزار شريف، ومهدي سلمان، وسالم حبيب.

ـ أنت تريد أن تفرض الأسماء التي تريدها!

عاد الحاج اسماعيل إلى مكانه غاضباً، ورفع السيد عبدالفتاح القدح الفارغ إلى فمه دون أن يعلم، ثم أعاده إلى مكانه وبعد صمت قليل قال:

ـ لنناقش الأسماء الخمسة التي اقترحها المدير. .

انتهز المدير هذه الفرصة، فبسط يديه كأنه يريد ان يتسلم شيئاً أو يعطي شيئاً وقال:

ـ نعم. . انا أقترح وأنتم تناقشون.

قال الحاج اسماعيل محتداً:

ـ أنا أرفض الأسماء الخمسة.

ـ أساتذة الإعراب تلقوها بالقبول!

ضحك السيد صبحي وهو يلقي بهذه النكتة، وضحك المدير وعبدالفتاح. ولم يجد الحاج اسماعيل ما يدعو إلى الضحك. كان غاضباً وناقماً.. لقد زج في لجنة لا يملك أن يفعل فيها شيئاً.. لذا راح يدمدم ساخطاً:

ـ الأمور الجدية نقابلها بالضحك والسخرية. متناسين أولئك المساكين الذين قدموا طلباتهم..

لعل بعضهم لا يجد قوت يومه..

لعله يعد الدقائق..

يقيس الظل ويتابع الشمس من مشرقها إلى مغربها بانتظار اليوم الذي تعلن فيه النتيجة على أمل أن يجد اسمه مع المقبولين!!

أنتم لا تعلمون..

أو تعلمون وتتغافلون..

أخطر الأمور نأخذها بالسخرية وعدم المبالاة!!

قبل تسعة أشهر هزمتنا إسرائيل شر هزيمة.. وبدلاً من ان نستعد بكل قوانا.. بكل ما عندنا.. بكل عزيز.. بكل نفيس.. لاستعادة أرضنا..

لغسل عارنا..

لطرد عدونا..

بدلاً من كل ذلك..

وغير ذلك..

اكتفينا بالجلوس أمام التلفزيون . .

والإستماع إلى أم كلثوم وفيروز . . وغير فيروز!!

إنني عندما أقرأ التاريخ، وأرى تلك الأمة العظيمة القوية الجادة . .

الأمة التي انشق لها القمر . . وطويت لها الأرض . . وراحت تنشر برَّها وخيرها وعلمها وعطرها وعبيرها وتقواها في كل الأرض . .

ثم انظر إلى حالنا اليوم . .

إلى الصفعات القوية التي تنهال علينا من كل مكان . . من كل يد!!

لا أستطيع أن أصدق . . أبداً . . أبداً . . بأننا من أولئك الأبطال الذين لم يصبروا على ظلم ولا ضيم ولا عدو غاشم مهما كان عدده وكانت عدته!!

ساد الغرفة صمت طويل . . كان الدخان المتصاعد من سيكارة المدير يتلوى كالخيط ثم يرتفع وينتشر ثم يختفي . . وكان السيد صبحي يرفع يديه عن المدفأة كلما نالتا من الدفء ثم يمرر كفيه على وجهه الحليق!

انقطع حبل الصمت، عندما دخل سبتي ليجمع الأقداح الفارغة . . فسأله المدير:

ـ هل جئت بعلبة السيكاير؟

رفع سبتي سرواله إلى بطنه، وحركه يميناً وشمالاً ثم قال:

ـ ذهب تايه ليشتري .

قال عبدالفتاح بصوت خفيض:

ـ هل نعيد قراءة القرار؟

ـ بل نعيد صياغته.

قال المدير وهو يعتدل في جلسته ويفتح الملف الذي أمامه بعد أن أطفأ السيكاره وألقاها في سلة المهملات.

قرأ السيد عبدالفتاح السطر الأول من القرار:

ـ استناداً إلى الأمر الإداري المرقم ت ل/٤٥٧٣ والمؤرخ في ١٩٦٨/٢/٢٥.

أضاف السيد صبحي مقاطعاً ومتمماً:

ـ القاضي بتشكيل لجنة لاختيار واختبار السادة المتقدمين للتعيين.

أشار المدير بيده:

ـ هذه عبارة جميلة.. لاختيار واختبار.. أكتبها.

ـ أأكتب كل الجملة التي قالها؟

ـ نعم.. أكتبها كلها.

امتلأ السيد صبحي زهواً، وشاعت على وجهه ابتسامة أضاءت محياه الصبيح، وأخرج مشطه الأبيض الصغير، وراح يمشط شعره المتموج وهو ينظر بسرور إلى السيد عبدالفتاح الذي كان يكتب العبارة التي قالها.

ـ اجتمعت اللجنة المشكلة بموجب الأمر الإداري المذكور أعلاه برئاسة.

ـ في العبارة تكرار ثقيل.

لم يجد السيد صبحي العبارة المناسبة.. ولم يحاول الحاج اسماعيل أن يدلي برأي حولها.. كان في حالة من الغضب

والإنفعال لا تسمح له بأن يتشارك أو يدلي برأي حول أمور شكلية لا تغير شيئاً من أساس المشكلة!

رفع السيد عبدالفتاح رأسه، وهو يمسك بقلم الحبر الأجنبي بأصابعه الثلاث وقال:

ـ اجتمعت اللجنة برئاسة السيد مدير الإدارة والذاتية.

ـ نعم.. هذه أفضل.. أحذف كلمة: المشكلة بموجب الأمر الإداري المذكور أعلاه.

شطب عبدالفتاح بقلمه على الكلمة المطلوب حذفها.. وكتب الكلمة الجديدة.

أضاف المدير:

ـ يجب أن يتكون القرار من فقرتين.. الأولى تخص المقبولين والثانية تخص الإحتياط.

هتف السيد صبحي وكأنه عثر على شيء ثمين:

ـ يذكر في آخر القرار.. وعند عدم المراجعة يسقط حقه في التعيين ويحل محله الأمثل فالأمثل..

عقد المدير حاجبيه وبسط كفيه مستفسراً:

ـ الأمثل فالأمثل.. ماذا تعني؟

ارتبك السيد صبحي، وتلعثم قائلاً:

ـ لا أدري.

ضحك السيد عبدالفتاح وقال:

ـ كيف نذكر كلمة لا نعرف معناها؟

ثم أضاف بعد قليل من التفكير:

ـ نضع بدلها . . الأفضل فالأفضل .

نقر المدير بإصبعه على المنضدة وقال :

ـ أظن أنها تؤدي نفس المعنى .

ثم أضاف وهو يشير بيده إلى السيد عبدالفتاح :

ـ اكتب . .

وفي حالة تخلف المرشح عن الحضور خلال عشرة أيام من تاريخ هذا القرار، يسقط حقه في التعيين ويحل غيره محله .

ـ ويحل غيره محله؟!

ـ لا . . ويرشح الاحتياط حسب الأسبقية .

نهض السيد صبحي وهو ينفض سرواله :

ـ الحمد لله . . انتهت مهمتنا .

أشار السيد عبدالفتاح قائلاً بلطف :

ـ اجلس .

ـ اختار المدير خمسة أسماء . . اذكرهم في نهاية الأسماء العشرين واكتب أمام كل منهم . . احتياط .

هز المدير رأسه مؤيداً وقال :

ـ اذكرهم بعد الفقرة الثانية .

ـ سبتي . .

أقبل سبتي مرعوباً :

ـ نعم أستاذ .

ـ أين علبة السكاير؟

obeikandl.com

تلعثم سبتي وهو يجيب بارتباك:

ـ أستاذ.. أنا.. أرسلت تايه.. سيأتي حالاً.

ـ اذهب..

انتظر..

أشار المدير إلى السيد عبدالفتاح:

ـ لنوقع القرار قبل أن نخرج.

مرَّ القرار على أعضاء اللجنة يوقعون عليه، ولكن الحاج اسماعيل تردد كثيراً.. قال المدير:

ـ إنك إذا لم توقع عليه فمعنى ذلك أنك تتهم اللجنة.

ـ إنني أتهم نفسي إذا وقعت عليه!

ولكن، وبعد إلحاح من الجميع.. وقع القرار.

تنفس المدير بارتياح، وجمع الأوراق ووضع القرار في الملف ونهض واقفاً.. فبادر سبتي يقول:

ـ أنا احمل الحقيبة.

فأشار صبحي بيده:

ـ أطفىء المدفأة أولاً..

نفخة واحدة.. لا ترفعها.. افعل هكذا.. نفخة واحدة.

حاول سبتي أن يطفئها بعدة نفخات، فلم يستطع، فدفعه صبحي جانباً وهو يقول:

ـ ألم تتعلم من السيد ابراهيم.. هكذا.. انظر.. ونفخها بهدوء فانطفأت.

خرج الجميع من الغرفة في طريقهم إلى السلم.. وأطفأ سبتي المصابيح الكهربائية، وركض وراءهم وهو يتأبط حقيبة المدير ويصيح:

- المصعد.. ننزل بالمصعد.

كان الرجال مترددين.. أيستعملون المصعد أم ينزلون على السلم؟ ولكن سبتي قضى على ترددهم:

- المصعد..

استعملته قبل قليل..

إنه يشتغل مثل الساعة.

obeikandl.com

obeikandl.com

٢ - فتّاح الفَال ...

obeikandl.com

كانت أرضية المصعد مغطاة بقطعة سميكة من المطاط الأحمر. وجدرانه من الألمنيوم الفضي اللامع. ومن السقف تطل مروحه تعمل على تلطيف الجو وتبديل الهواء الساخن صيفاً. ومصباح فضي يختفي وراء زجاج سميك فوق الباب ينشر ضياءً خفيفاً مريحاً!

ضغط سبتي على رقم سبعة وهو يقول:

ـ سنجد تايه بانتظارنا.

انسدت الباب، وتحرك المصعد بهدوء صاعداً إلى الطابق السابع!

فصاح المدير منفعلاً:

ـ ماذا فعلت؟

ـ إنه ينزل.

ـ اضغط على مفتاح الوقوف.

ولكن سبتي وضع إصبعه على مفتاح الجرس..

ثم انطفأ الضوء!!

صاح الجميع:

ـ ماذا فعلت؟

وأضاف المدير:

ـ أيها الغبي.

ثم عاد الضوء..

وبدأ الجرس يرن.. والمصعد يتحرك إلى الأعلى. فدفعه المدير عن مكانه، ووضع إصبعه على مفتاح الوقوف.

وقف المصعد قريباً من الطابق السادس. ولكن التيار الكهربائي انقطع مرة ثانية، وترك الجميع في ظلام دامس فتأفف المدير:

ـ أف.. هذا القرد.. هذا القرد..

ثم عاد التيار بعد لحظات.

وضع المدير إصبعه على مفتاح الطابق الأرضي وهو يقول:

ـ هذه مشاكل المصعد.. كنت أفضل النزول على السلم.

تحرك المصعد نازلاً.. حتى وصل قريباً من الطابق الأول أو اجتازه بقليل.. ثم انقطع التيار مرة ثالثة!! ووقف المصعد في مكانه!

ساد الصمت لحظات على أمل أن يعود التيار كما عاد في المرتين السابقتين.. ولكن الحاج اسماعيل قال:

ـ أظن أنني سمعت صوت انفجار.

أيد السيد صبحي:

ـ إنه انفجار إطار إحدى السيارات.

ـ أنا أيضاً سمعت.

كان ذلك صوت السيد عبدالفتاح، الذي أضاف أيضاً:

ـ إطارات السيارات لا تنفجر في الشتاء.

وبعد فترة صمت عاد يقول:

ـ أظن أن التيار الكهربائي قد انقطع عن الشارع كله!

راحت يد المدير تعبث بعدد من النقود المعدنية في جيبه، فيبدد رنينها شيئاً من السكون الذي خيم على الحاضرين.

قال سبتي بصوت خائف:

ـ أسمع أصوات أقدام تصعد السلم.

فصاح المدير:

ـ تايه.

وتبعه سبتي يبدد الخوف الذي تملكه:

ـ تايه.. تايه.. تايه..

وكان صوته عالياً صارخاً مزعجاً، اضطر الحاج اسماعيل وصبحي وعبدالفتاح إلى وضع أصابعهم في آذانهم!!..

ثم عاد الصمت..

وأنصت الجميع.. لعلهم يستطيعون أن يسمعوا خلال السكون الشامل صوتاً.. حركة.. أي شيء يدل على وجود إنسان خارج المصعد!..

قال المدير:

ـ نحن نتخيل.. إنني لم أسمع شيئاً.

أيد سبتي:

ـ ولا أنا.

صرخ المدير غاضباً:

ـ أنت تسكت.. أنت تسكت فقط.

التصق صبحي بالجدار، وراح يحملق في الظلام لعله يستطيع أن يرى شيئاً. رفع يده وقربها من عينه فلم يرها!! لقد غرق الجميع

في ظلام دامس.

ـ تأفف المدير وقال متذمراً:

ـ أنا اعرف مشاكل المصعد.. قلت لكم ننزل السلم.. ولكن هذا القرد.

ـ دعني أضغط على الجرس.

ـ لا أريد أن أسمع صوتك.

همس الحاج اسماعيل يخاطب عبدالفتاح الذي كان يقف إلى جانبه:

ـ أرجو أن تذكرني عندما نخرج.. أريد أن أشتري دواءً من الصيدلية.

قال صبحي:

ـ أنا أيضاً أريد أن أشتري كمية من البرتقال.

لم يستطع أحد أن يرى الابتسامة العريضة التي ارتسمت على شفتي السيد عبدالفتاح وهو يقول:

ـ عدت في الأسبوع الماضي في الساعة الثامنة والنصف ليلاً، وكنت متعباً مرهقاً.. وكان أحد باعة البرتقال ينادي بأعلى صوته.. يبيع البرتقالة الواحدة بخمسة عشر فلساً. وكان في جيبي ثلاثة دراهم.. فأردت أن أشتري البرتقالة الواحدة بسعر أقل.. فقلت أساومه:

ـ ثلاثة بدرهم.

فنظر اليَّ كالمستغرب.. ثم قال:

ـ خذ.

اشتريت تسع برتقالات بثلاثة دراهم. . وذهبت إلى البيت مسروراً. . فلما سألتني أمي قلت:

ـ كان يبيع البرتقالة بخمسة عشر فلساً. . ولكني استطعت أن أشتري كل ثلاث برتقالات بدرهم!!

رأيت أمي تنظر إليَّ وكأني أخطأت التعبير!!

انفجر السيد صبحي ضاحكاً، وتبعه الحاج اسماعيل أما المدير فقد كانت همومه تمنعه من الإصغاء أو إدراك موضع النكتة في قصة السيد عبدالفتاح. أما سبتي، فلم يفهم النكتة. بل تعجب. . لماذا يضحك هؤلاء؟! ثم تململ وسأل:

ـ كيف أستطيع أن أراكم. إن نظري ضعيف.

شعر المدير كأن جدران المصعد تضيق. . بل تكاد تطبق عليه. وكما يشعر ركاب الطابق الثاني في سيارة مصلحة نقل الركاب في يوم شديد الحر شديد الزحام، وقد أغلقت النوافذ، والمحرك (يعتعت) والسائق في حديث خاص مع بائع التذاكر ولا يلتفت إلى الحالة التي يمر بها الركاب. . وكأن الأمر لا يعنيه. كذلك شعر المدير في مكانه هذا بالضيق، وكأن الهواء النقي قد نفد، ولم يبق إلا الهواء الكريه الملوث بأنفاس. .

تثاءب سبتي بصوت مرتفع، ثم سأل وقد تطاير رذاذ من فمه على وجه المدير:

ـ متى يتحرك المصعد؟

انفجر المدير ثائراً وقد حاول أن يركله بقدمه:

ـ عندما نتخلص منك ومن جهلك وشكلك وحماقتك!

ثم أضاف متذمراً ساخطاً:

ـ لماذا عقدنا الاجتماع هذا اليوم؟

أما كان الأفضل والأجدر أن نعقده بعد العيد؟!

ـ أنت طلبت عقده هذا اليوم!

أجابه السيد عبدالفتاح وهو يرفع يده محاولاً النظر إلى ساعته.

مضت فترة صمت ليست طويلة، قطعها الحاج اسماعيل قائلاً:

ـ أسمع صوت سيارة إسعاف.

تريث السيد عبدالفتاح ثم قال:

ـ إنها سيارة إطفاء.

ثم أضاف بعد قليل:

ـ لقد شب حريق في الشارع.

أحْ أحَ المدير وهو يصفي حنجرته وقال:

ـ أخشى أن يكون قد شب في المؤسسة!

ثم دفَّ سبتي الذي كان يقف قريباً منه بأصبعه:

ـ هل أطفأت المدفأة؟.

ـ نعم أستاذ.

قال صبحي:

ـ أنا أطفأتها قبل أن أخرج من الغرفة.. أطفأتها على الطريقة الإبراهيمية.

هتف سبتي محتجاً:

ـ أنا أطفأتها.

سأل السيد عبدالفتاح:

obeikandl.com

ـ وكيف تكون الطريقة الإبراهيمية؟

مضى السيد صبحي يشرح:

ـ كان السيد إبراهيم حفظه الله.. يخرج المدفأة عندما يشتد البرد، ينظفها ويملأها نفطاً، ثم يضعها في مكان واحد لا تتحرك منه أبداً إلى أن ينتهي الشتاء لا ينقص نفطها ولا تبدل فتيلتها.. لا يشعلها إلا هو. فإذا أراد إطفاءها.. انحنى عليها بحنان، وبنفخة واحدة لا غير.. هكذا..

ونفخ السيد صبحي مقلداً طريقة السيد ابراهيم في إطفاء المدفأة.. ثم مضى شارحاً ومبيناً فوائد هذه الطريقة:

ـ وبذلك يستطيع السيد ابراهيم حفظه الله أن يحفظ المدفأة جديدة، نظيفة، صالحة إلى الأبد!! دون تبديل أو تغيير في أي جزء من أجزائها.. حتى الفتيلة تبقى كما هي..

فإذا انتهى البرد.. قام بتنظيفها أيضاً بكل لطف ورفق وحنان.. وملئها بالنفط ثم نقلها إلى مكان واحد أمين لا تصل إليه يد ولا رجل!! وذلك بعد أن يغطيها غطاءً جيداً. حفظه الله.

صاح عبدالفتاح:

ـ آمين.

سأل المدير:

ـ متى يعود الحجاج من مكة؟

أجاب الحاج اسماعيل:

ـ بعد العيد مباشرة.

ـ سأل السيد صبحي:

ـ إذا صار الحج في رمضان . . فماذا يفعل الناس، يصومون أم يحجون؟

لم يستطع أحد أن يتبين ملامح السيد صبحي وهو يطرح السؤال . . ولم يستطع أحد أن يعرف أكان جاداً أم هازلاً! ولكن سبتي أجاب بسرعة:

ـ يصومون . .

وقال السيد عبدالفتاح . .

ـ بل يصومون ويحجون . . كلها عبادة . . وطاعة!

ولاذ المدير بالصمت . . ثم توجه بالسؤال إلى الحاج اسماعيل:

ـ ماذا يقول الحاج؟

ـ إذا حدث ما تقولون فلا أحج ولا أصوم .

هتف الجميع:

ـ لماذا؟!

ـ لأن شهر الحج وشهر الصيام من أشهر السنة الهجرية . . ماذا دهاكم؟ هل يمكن أن يأتي شهر ايلول في شهر حزيران؟!

لاذ الجميع بالصمت . . كيف فاتهم هذا؟ ولكن سبتي لم يفهم فصاح من مكانه:

ـ ولكن شهر الصيام يأتي في الصيف أحياناً .

قال الحاج اسماعيل:

ـ سمعت سيارة الإطفاء تبتعد .

قال عبدالفتاح:

ـ إنها سيارة اسعاف هذه المرة .

قال المدير وكأنه يحدث نفسه:

ـ لماذا لم يعد تايه لحد الآن؟

ثم أضاف وهو يتحسس ساعة يده:

ـ كم الساعة؟

ـ من يستطيع أن يرى عقارب الساعة في هذا الظلام؟!

كان الحاج اسماعيل هو المتكلم.. أما السيد صبحي فقد قال:

ـ أنا نسيت ساعتي في البيت.

رفع السيد عبدالفتاح يده اليسرى، وحملق في ساعته ثم تمتم قائلاً:

ـ أرقام ساعتي ليست فسفورية.. لكن.. أظن أنها لم تبلغ التاسعة بعد.

ـ يجب أن أكون في التاسعة هناك.

ـ أين؟

ـ هناك.

كتم السيد صبحي ضحكة ذات مغزى وقال:

ـ هناك يا أخي.. لا تتدخل في شؤون المديرين.

ـ هناك؟

ـ نعم.

فتبسم عبدالفتاح:

ـ فهمت.

كان الظلام يخفي ما ارتسم على الوجوه من قلق وانفعال

ورعب، وقد حاول المدير أن يتذرع بالصبر وضبط النفس.. وأخذ القلق يدب في النفوس ويعمل عمله.

قال الحاج اسماعيل:

- إن قوماً قبلنا وقعوا في مثل المأزق الذي وقعنا فيه..

همس صبحي:

- إذا نفد الأوكسجين فماذا نفعل؟

كانت الفكرة جديدة، لم تخطر على بال الباقين..

تنحنح المدير وقال:

- مساحة المصعد كبيرة.. وكمية الهواء تكفي لمدة طويلة.

أيد السيد عبدالفتاح ثم أضاف:

- سيعود الكهرباء بعد قليل.

عاد السيد صبحي يقول بقلق:

- ولكننا خمسة!!

ثم رفع يده وأرخى رباط العنق:

- إنني أشعر بالإختناق.. أشعر بضيق في الصدر وصعوبة في التنفس.

لم يدر سبتي ما الأوكسجين، ولماذا يشعر السيد صبحي بالإختناق.. إنه يريد أن يعود التيار الكهربائي ويضاء المصعد، ولا يهمه بعد ذلك إذا تحرك المصعد أو لم يتحرك!!.

قال المدير:

- المصعد يكفي لعشرة أشخاص.

أضاف السيد عبدالفتاح موضحاً:

ـ عشرة أشخاص لفترة قصيرة.

رفع المدير رأسه إلى الأعلى وقال:

ـ توجد في سقف المصعد مروحة تعمل على تبديل الهواء.

أيد الحاج اسماعيل رأي المدير:

ـ إنها تعمل على تحريك الهواء وتبديله خلال فتحة فوقها.

ارتاح السيد صبحي قليلاً، وأراد سبتي أن يسأل ما الأوكسجين.. ولكن الكهرباء عاد فجأة.. فصاح سبتي فرحاً كما يصيح الأطفال.. وأراد أن يصفق ولكن حقيبة المدير سقطت على الأرض، فانحنى عليها.. ثم انقطع التيار قبل أن تتم الفرحة!!

راحت أصابع المدير تعبث بالمفاتيح بصورة عشوائية. ثم أخذ يضغط بانتظام ويطيل المدة.. لقد حدث مرة.. قبل سنة، أن وقف المصعد، وكان معه ـ في المصعد ـ أحد المراجعين، وموظفة بدينة بشعر أحمر ووجه منتفخ يشبه وجوه الدمى التي تعرضها محلات اورزدي باك. وموظفة أخرى صغيرة نحيفة نحيلة كأنها خرجت من معصارة فتركتها بلا لحم ولا عظم!! فراح المراجع يرتعد فرقاً، ويصيح:

ـ عفوك يا رب.. عفوك يا رب..

وبكت الموظفة البدينة.. وأغمي على الموظفة الصغيرة!! وقد اضطر العامل المكلف بإصلاح المصعد إلى كسر الباب. ونقلت الصغيرة إلى المستشفى.. وانطلق المراجع هارباً وقد نسي القضية التي جاء من أجلها! أما الموظفة البدينة، فقد جلست في قسمها تبكي وتروي للموظفين والموظفات الذين أحاطوا بها ما أصابها!!

عاد التيار مرةً ثانية..

فتنفس السيد صبحي ملء رئتيه..

ولم يطلق سبتي صيحة أخرى..

كان الضياء قوياً ساطعاً أشد مما كان عليه. فهمس الحاج اسماعيل مع نفسه:

- الحمد لله.

وانفرجت أسارير سبتي وقال:

- انتهت المشكلة.

وضغط المدير على مفتاح الطابق الأرضي وهو يقول:

- لقد تأخرنا.

ولكن المصعد لم يتحرك!!..

وكان السيد صبحي ينظر إلى إصبع المدير ويقول:

- لا تضغط بقوة.. لمسة خفيفة.

ثم تقدم وهو يضيف:

- اسمح لي من فضلك.. دعني أجرب.

وتريث المدير قليلاً.. ثم انسحب إلى الناحية الثانية، وترك السيد صبحي يجرب المفاتيح واحداً بعد واحد حتى وصل إلى مفتاح الجرس، فضغط عليه وراح يرن.. ثم التفت دون أن يرفع يده، فسأله المدير متهكماً:

- هل تحرك المصعد؟

- لعل تايه يسمع الجرس فيعلم أننا هنا.

فأيد الحاج اسماعيل:

- فكرة جيدة.

أشار السيد صبحي إلى رأسه مسروراً وقال:

ـ هنا مصنع الأفكار.

قال السيد عبدالفتاح:

ـ إنها الساعة التاسعة.

نظر المدير والحاج اسماعيل إلى ساعتيهما.. وتميز المدير غيظاً وهو ينظر إلى سبتي:

ـ ماذا صنعت؟

ـ لا شيء.. سيتحرك المصعد.

ـ ثلاثة أيام قطع راتب.

ـ أنا أقف بعيداً عن المفاتيح.

ـ خمسة أيام قطع راتب.. وإذا فهتَ بكلمة..!

ـ إلى أين ذهب الحارس؟

أراد الحاج اسماعيل أن يغير مجرى الحديث:

ـ أخشى أن يكون قد أصابه مكروه.

رفع السيد صبحي يده عن مفتاح الجرس وقال بيأس:

ـ لعله ذهب إلى بيته!

ـ إلى بيته؟

ـ لعله صعد إلى الغرفة فلم يجدنا فيها.. فنزل وأغلق الباب الخارجي وذهب إلى بيته.

هتف عبدالفتاح:

ـ إنه حارس.

تمتم المدير بكثير من الغيظ والغضب:

ـ إنني أتوقع كل شيء من هؤلاء.

obeikandi.com

ـ لكنه سيحاول استعمال المصعد عندما يعود حاملاً علبة السيكاير.

ـ لقد ذهب والتيار مقطوع!!

احتضن سبتي الحقيبة السوداء جيداً وقال:

ـ إنه لا يستعمل المصعد.

أعاد السيد صبحي إصلاح ربطة العنق التي كان قد أرخاها وقال:

ـ سنسمع صوت أقدامه عندما يصعد السلم، فنناديه، أو ندق الجرس فيعلم أننا هنا.

هز الحاج اسماعيل رأسه وقال:

ـ ولكنه لا يستطيع أن يصلح المصعد.. والكهربائي في بيته. فظهر الفزع على وجه السيد صبحي وسأل هو والسيد عبدالفتاح مرة واحدة:

ـ هل يعلم اين يقيم مهدي الكهربائي؟

هل يعلم أحد منكم؟..

ثم دارت عيونهما في الوجوه التي لم تفصح عن إجابة واضحة.. فهتف السيد صبحي بجزع:

ـ هل كتب علينا أن نموت هنا؟

خيم صمت كئيب حزين على الجميع، وراحت العينان المتسائلتان تنتقل من واحد لآخر فلم تجد إجابة مرضية! وبعد فترة تنهد الحاج اسماعيل:

ـ لقد وقع ثلاثة رجال قبلنا في مثل المأزق الذي وقعنا فيه.. اضطروا إلى اللجوء إلى غار فسقطت صخرة من الجبل وسدت الغار فلم يستطيعوا الخروج.

ـ إنني أسمع موسيقى . . أغنية .

ضغط صبحي على الجرس :

ـ لعل أحد المارة يسمع الجرس فيخف لإنقاذنا .

ـ وإذا كان الباب الخارجي مقفلاً؟!

ـ والحارس؟

ـ مات!

نظر السيد صبحي في وجه سبتي :

ـ كيف علمت؟

ـ أظن . . أظن . .

ـ ماذا تظن؟

ـ لِـ لِـ لِـ لِـ . . لِم لمْ يعد اذن؟

تبسم السيد عبدالفتاح وقال :

ـ إذا لم يصب بحادث . . إذا لم يترك واجبه ويذهب إلى بيته . . فلا شك في أنه جالس في مقهى علوان بزون . . يشرب الشاي . . ويتحدث مع أحد الجالسين . . ونحن ننتظر . .

وغيرنا ينتظر!!

تمتم المدير بصوت خفيض :

ـ أنا ينتظرني عدد من الأصدقاء في . . في شارع أبي نواس كان يجب أن أكون هناك، في التاسعة .

أغمض عبدالفتاح عينه، ورفع رأسه، كأنه يريد أن يحلق إلى فوق . . فوق . . وراح يتحدث بهمس :

ـ أنا تنتظرني بلادي . . أرضي . .

بيت صغير . .

وشجرة رمان.

وعين ماء.

ومحمد ماضي القاضي..

ثم تنهد.. وسكت.. كأنه يخشىٰ أن ينفجر..

إنه لا يريد أن يسترسل في قراءة كتابه الحزين.. كتاب الدموع والآلام!

سأل السيد صبحي، وهو يضع يده على كتف سبتي:

ـ وأنت.. هل ينتظرك أحد؟

ـ أنا.. لا.. نعم.. تنتظرني أم جمعة.

ثم تثاءب فاتحاً فمه الكبير، محدثاً صوتاً مزعجاً، ثم رفع يده ودعك عينه اليمنى:

ـ لو كنت في البيت، لكنت في سابع نومة.

ـ متى تبدأ النومة الأولى؟

نظر سبتي إلى السيد صبحي طويلاً ثم أجاب:

ـ أنا أنام بعد العشاء.

سأله الحاج اسماعيل:

ـ بعد صلاة العشاء؟

تثاءب سبتي مرة ثانية:

ـ أنا أنام بعد أن أتناول طعام العشاء.

ـ هل تصلي؟

ـ لا.. نعم.. صليت مرة واحدة.. في العيد.. في جامع السيد محمد صالح الجرجيس.

ثم رفع يده، وراح يحك رأسه كأنه يريد أن يتذكر شيئاً ثم أضاف:

ـ حسام ابن الحاج مولود يصلي.

إنه شاب مقفف!!

تلفظ كلمة (مقفف) بسرعة، وتطلع في الوجوه ليرى إن كان قد تلفظ الكلمة بصورة صحيحة.

سأله عبدالفتاح:

ـ مقفف؟

فاستدرك بسرعة:

ـ مقثف!

وبلع ريقه، ونظر بشيء كثير من التردد والارتباك.. فضربه السيد صبحي بيده على كتفه وانفجر ضاحكاً:

ـ إنه يريد أن يقول: مثقف.

وسرت موجة الضحك إلى الجميع، وبقي سبتي واقفاً صامتاً مستغرباً ومتعجباً.. فلما خفت الموجة عاد فقال:

ـ استطاع أن يهزم فتاح الفال.

ـ من؟

ـ حسام.

هتف السيدان صبحي وعبدالفتاح بصوت واحد:

ـ المقفف؟

فرد عليهما مصححاً:

ـ المقثف.

انفجر الجميع ضاحكين مرةً اخرى. . وبقي سبتي ينظر إليهم متعجباً ومرتبكاً. .

لماذا يضحكون؟

إنه لا يعرف سبباً واحداً يدعوهم إلى الضحك!!

كان السيد صبحي أكثرهم استغراباً في الضحك، وقد وضع يده على بطنه، وكلما نظر إلى سبتي الذي وقف عابساً ارتفعت موجة الضحك لديه. فلما هدأ. . سأل المدير:

ـ كيف استطاع حسام، أن يهزم فتاح الفال؟

حوَّل سبتي نظره إلى المدير، وبرطم. . كأنه يريد أن يبكي، كان في بياض عينيه صفرة مريضة، وكان يتمتع بحاجبين كثيفين وجه مهمل لا حليق ولا طليق. ويرتدي قميصاً أعفر، يعلوه درع رمادي يحميه من البـرد، وبدلة سوداء غبراء لم تنل حظاً من النظافة منذ تعارفا إلى هذه الساعة!

ـ كيف استطاع حسام أن يهزم فتاح الفال؟

كان الجميع قد سمعوا القصة أكثر من عشرين مرة. . إلا المدير. . ولكن سبتي حول نظره إلى السيد صبحي الذي أدار وجهه إلى الجدار وراح يضحك بصمت محاولاً السيطرة على نفسه دون جدوى!

وأراد الحاج اسماعيل أن يحسم الموضوع، فراح يروي القصة كما سمعها:

ـ في زقاق ضيق مرتفع، تنهض جدران البيوت القديمة على جانبيه بشكل رصيص، وتطل قلل الماء البارد من شبابيك الغرف المفتوحة

وشناشيلها الخشب. . وفي عصر يوم من أيام الصيف. . مرَّ فتاح الفال. . رجل طويل نحيل أبيض، بعينين ذابلتين وأنف طويل مستقيم متواضع، وشارب خفيف، ولحية قصيرة بيضاء مدببة من الأسفل. يرتدي ثوباً طويلاً أملح، ويضع على كتفه عباءة خفيفة شفيفة بلا لون. وعلى رأسه كوفية قديمة احتضنتها عصابة من نفس اللون تشبه العمامة!!

وبصوت عميق تتخلله نبرة كأنها رعشة لذيذة، تتجاوب معها الجدران:

ـ فوال. . فتاح فال. .

هرع إليه عدد من النسوة. . صالحة ونشمية وأم ستار وأم رفيق ونوفة وملكية وأم عباس ورسمية الخياطة وفاطمة العانية وأم عساف الدورية.

وقف فتاح الفال وحوله النسوة، وفتح دفتراً صغيراً بحجم الكف يضم قلما أسود، رفع القلم بيده إلى فمه وهو يقول:

ـ واحدة واحدة. .

وفي لمح البصر. .

وكأن الأرض قد انشقت وخرج منها صبي صغير ذكي أهيف وقال متحدياً:

ـ هل تعلم الغيب؟

لم يلتفت إليه فتاح الفال. . بل قال وهو يبلل القلم بفمه:

ـ إذهب بابا. . إذهب.

ولكن حساماً ابن الحاج مولود رفع يده وقد ضم قبضته وسأله:

ـ إذا كنت تعلم الغيب فاخبرني . .

ماذا في يدي؟!!

لم يمر فتاح الفال طوال عمره الذي قضاه في هذه المهنة بمثل هذا الإمتحان!! وأرادت نوفه أن تقف إلى جانب الرجل:

ـ إذهب حسام . . عيب!!

ولكنه لم يتزحزح من مكانه . .

وبقيت قبضته تتحدى . . بإصرار:

ـ إذا كنت تعلم الغيب فأخبرني . .

ماذا في يدي؟ .

أخرج فتاح الفال منديله الوسخ . . وراح يمسح العرق الذي تصبب على جبينه . . وحاول أن يجد طريقة . . أية طريقة يستطيع بها أن يدفع بها الصبي العنيد . .

ـ إذهب بابا . . العب مع الاطفال . .

ولكن اليد الصغيرة الكبيرة، الفتية القوية، ظلت تتحدى:

ـ إذا كنت تعلم الغيب . . فأخبرني . .

ماذا في يدي؟

وانحاز النسوة إلى جانب الصبي، ورحن ينظرن إلى الرجل بانتظار الجواب . .

هل ينجح في الامتحان؟!

وبلع الرجل ريقه . .

وتمنى أن يكون جوابه صحيحاً:

ـ تراب . . إنه تراب .

obeikandl.com

فضحك حسام ضحكة ساخرة صاخبة قاتلة . . وفتح يده . .
فنسف بها كل ما لدى الرجل من أكاذيب ودجل وشعوذة :
ـ انظر . . إنها ورقة .
هتف المدير متحمساً :
ـ بطل . .
قال السيد عبدالفتاح :
ـ أنت وصفت فتاح الفال . . وكأنك تنظر إليه!
فتبسم الحاج اسماعيل :
كنت أراه . . أحياناً .

obeikandl.com

obeikandl.com

٣ـ صَلاَة العِشَاء ...

obeikandl.com

obeikandl.com

ـ إن الهواء بدأ يتغير.

ـ افتحوا المروحة.

ضغط السيد صبحي على مفتاح المروحة، فتحركت في سقف المصعد ولها هفيف خفيف.. تنهد الحاج اسماعيل بعد أن ملأ رئتيه من الهواء البارد وقال:

ـ لا أظن أن أحداً سيخف لإنقاذنا..

لم يرد أحد من الحاضرين أن يجيب! وبماذا يجيب؟ لقد كان الأمر محيراً..

أضاف الحاج اسماعيل بعد قليل:

ـ إن إرادة عليا قد اضطرتنا إلى هذا المكان لسبب نجهله، وإذا لم نلجأ إلى الله، ونسأله أن يفرج عنا، فسنبقى!!

ـ إلى متى؟

ـ لا أدري.

ـ كيف.. كيف نلجأ إلى الله؟

سأل السيد صبحي بصوت يشبه الهمس، ولكن بلهفة وتطلع..

قال الحاج اسماعيل:

ـ نصنع كما صنع أصحاب الغار..

نسأل الله بصالح أعمالنا..

أحْ أحَ المدير وتنحنح.. ثم قال:

- أنا والحمد لله لم أعمل سوءً قط . . قلبي أبيض . . ونفسي في صفاء المرآة . . وأحب الخير لكل الناس .

لم يلتفت الحاج اسماعيل إلى جواب المدير . . ولكنه راح يوضح :

- في حياة كل منا عمل صالح . .

عمل نقي صحيح مرفوع إلى الله تعالى . . لا تشوبه شائبة من رياء أو نفاق أو مَنٍّ أو محمدة ! !

لنبحث عنه . .

ونسأل الله تعالى به . .

فإن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما كان خالصاً لوجهه وموافقاً لشرعه .

شيء من الصمت واليأس خيم عليهم ، وراحت يد المدير تعبث في جيبه فتوسوس قطع النقود المعدنية الصغيرة . وأصابع السيد صبحي تنقل الخاتم الذهب من اليد اليمنى إلى اليسرى ومن اليسرى إلى اليمنى . . وعدا ذلك لا يسمع إلا هفيف المروحة . . والمصباح المخفي يرسل ضياءً مريحاً .

نظر السيد عبدالفتاح إلى ساعته وقال بهدوء ، كأنه يخشى أن يبدد ذلك السكون :

- إنها العاشرة والنصف .

احتضن سبتي حقيبة المدير ، وجلس في الزاوية اليسرى من ناحية الباب وقال وهو يغمض عينيه :

obeikandl.com

ـ كنت أتمنى أن أنام ليلة واحدة في المصعد . . أيقظوني في السابعة .

انفجر المدير غاضباً . . ودفره برجله وصرخ به :

ـ أنت أيها القرد . . لا تفهم ولا تعي ولا تتعلم .

إننا سنبقى هنا . .

سنموت هنا . .

سنموت كلنا بسببك . . بسبب جهلك وغبائك وسوء تصرفك ! !

وفقد المدير صوابه ، وراح يضغط على جميع المفاتيح بقوة وعصبية ويضرب برجله على أرض المصعد ! !

أدرك سبتي حقيقة الموقف ، فترك الحقيبة تسقط من يده ، ونهض واقفاً وقد ضم كفيه وراح يضرب بقبضتيه على باب المصعد وهو يصرخ بجنون :

ـ تايه . . تايه . . تايه . .

وضع الحاج إسماعيل يده على كتف سبتي وقال منبهاً :

ـ تنح قليلاً . . أريد أن أصلي العشاء .

ولكن سبتي لم يلتفت إليه ، ولم ينقطع عن الضرب على باب المصعد والصياح . . ثم أخذ يسب ويلعن ويستعمل أقذع أنواع السب والشتم وهو يضرب الباب بيده ويركله برجله ! !

شعر الجميع بإرهاق ، وتوتر أعصاب . . واحتضن السيد صبحي رأسه بيديه وراح يضغط بلطف على جانبي رأسه . أما عبدالفتاح ، فقد أخذ يحرك ساعة يده ويديرها حول معصمه . . وبقي الحاج اسماعيل ينتظر أن يفسح له مكان لأداء الصلاة !

أراد المـدير أن يأمر سبتي بالكف عن الصياح والضرب على الباب، فلم يستجب له!! فتله بعنف وهو يصرخ به:

ـ أنت..

أنت أيها الغبي.. أنت تثير أعصابنا!

ثم راح يهدد:

ـ أقسم بأن لا أدعك بعد اليوم في المؤسسة. سأبعدك إلى آخر الدنيا..

إلى آخر فرع..

إلى أبعد فرع في العراق.

كفَّ سبتي عن الضرب.. وبقي واقفاً جامداً في مكانه رافعاً يديه مستنداً بهما على باب المصعد، وقد مال رأسه إلى الأمام.

كان يبدو ببدلته السوداء الغبراء كأنه كتلة من الصخر الأصم!!

ـ سأبعدك إلى الموصل.. إلى زافو.. إلى سنغافورة!

تحـركت الكتلة الهائلة ببُطء، واستدار سبتي وقد تغير شكله وصوته ووضعه!!. وأخذ ينظر إلى المدير نظرة غريبة رهيبة مرعبة!

ـ أنت تهددني..

بلع المدير ريقه..

ـ سأنقلك إذا.. إذا..

ـ أنت تهددني..

ـ إنني..

ـ أنت أيها الحيوان الصغير السخيف القذر.

التصق المـدير بجـدار المصعـد، وتمنى لو كان المكـان

أرحب . . وقال بصوت ضعيف مريض متخاذل :

ـ اخـ . . رس . .

ـ أنت تهددني . .

كانت العينـان الصفراوان يتـطاير منهمـا الشـرر . . ووجهه ويده . . وكل أعضائه تريد أن تنقض على المدير فتدكه ! !

ـ أنت تهددني . .

أيها الحيوان الصغير السخيف القذر .

كانت الكلمات تخرج مع الرذاذ المتطاير من فمـه كأنها الحمم . .

ـ أنت تهددني . .

وتلفت المدير . .

بمن يحتمي ؟ !

ـ أنت تهددني ؟

سأقتلكم جميعاً . .

سأخرج وحدي حياً . .

ثم انحنى فحمل الحقيبة السوداء بيديه ، ورفعها عالياً وهبط بها بقوة على رأس المدير ! !

صرخ المدير :

ـ آخ . .

ـ أنت تهددني . .

أحاط به الحاج اسماعيل وعبدالفتاح وصبحي وراحوا يهدئونه .

ـ إنه يحبك .

ـ إنه يريد أن يجعلك رئيسا للفراشين .

ـ إنه يمزح معك.

رفع الحقيبة مرة ثانية وهبط بها على كتفه.. فصرخ المدير:

ـ أبعدوه عني.. إنه يريد أن يقتلني.

ـ سأقتلكم كلكم..

أنت تهددني..

هزه عبدالفتاح بقوة:

ـ اسمع..

اسمع.. إنه يريد أن يجعلك رئيساً للفراشين.

هل تريد أن تخسر المنصب؟

ـ منصب؟

ـ نعم..

ـ منصب؟

راح صبحي يوضح:

ـ ستكون رئيساً للفراشين في سنغافورة.. ثم رئيساً للرزامين في كاتانيا.. ثم..

ـ لا أريد أن أكون (ثم)..

التفت السيد صبحي إلى المدير:

ـ لا يريد أن يكون (ثم).

ثم عاد فسأله:

ـ ماذا تريد إذن؟

ـ أريد أن أذهب إلى البيت.

التفت صبحي وكرر العبارة:

ـ إنه يريد أن يذهب إلى البيت.

obeikandl.com

قال الحاج اسماعيل بلطف:

ـ إنك إذا تحركت كثيرا، وتكلمت كثيراً، نفدت طاقتك، فلا تستطيع أن تتحمل.

لم يستطع سبتي أن يفهم كلام الحاج اسماعيل، ولكنه شعر أن الرجل لا يخدعه.

أضاف الحاج اسماعيل وهو يكلمه باحترام:

ـ أريد أن اصلي العشاء.. إذا سمحت.

ثم قال كأنه يحدث نفسه:

ـ لا أريد أن ألقى الله وفي عنقي دَين!

ثم توجه إلى القبلة، بعد أن أشار إلى السيد عبدالفتاح أن يفسح له.. ثم رفع يديه وقال:

ـ الله أكبر..

لم تكن ثائرة سبتي قد هدأت تماماً.. كان ينظر إلى المدير..

ـ أنت تهددني..

رفع السيد عبدالفتاح إصبع السبابة إلى فمه.. مشيراً إلى سبتي بالسكوت.. تماماً كما يفعل مع طفل صغير في الثانية من عمره.

راح الحاج اسماعيل يقرأ القرآن بصوت أليف حنين حلو النبرات.. وراح الجميع يصغون.. ويتفكرون.. عبادة عجيبة فريدة..

وقفة انقياد وتسليم وتعظيم..

ثم ركوع للإله العظيم.. الواحد الأحد.. الفرد الصمد!

فاعتدال..

obeikandl.com

ـ فسجود . .

غاية الطاعة . . غاية الانقياد . .

غاية الحب مع غاية الذل ! !

لا بد أن الله تعالى . . الذي فرض هذه العبادة . . الذي نعبده ونحبه . . أكبر من كل ما نتصور . . وأعظم مما يتصور متصور ! !

الله أكبر . .

هذه الكلمة . . بتكرارها في الصلاة تؤكد ذلك . . تؤيد وتؤكد في كل حركة من حركات الوقوف فالركوع فالسجود . . الله أكبر . .

لا حاكم . . ولا وزير . . ولا عظيم . . ولا حقير . . ولا رئيس . . ولا . . ولا اولئك رؤساء الدول الكبيرة الذين يهددون ويرعدون ويزبدون . .

كل اولئك سينتزعهم الموت من بين أتباعهم . . سيلقون في حفـرة صغيرة حقيرة مظلمـة . . وسيعلم اولئـك المتكبـرون . . وغيرهم . . وغيرهم . . أن الكبير هو الله . . وأنهم كانوا صغاراً صغاراً مخدوعين .

الله أكبر . .

وله الكلمة . .

وله الأمر . .

وبيده الملك . .

وهو على كل شيء قدير .

. . . . . .

دخل الحاج اسماعيل الصلاة بكلمة : الله أكبر . . وخرج منها

بكلمة: السلام عليكم ورحمة الله.

لم يلتفت.

لم يأت بحركة تخل بصلاته.

كان في صلاته كأنه خرج من الدنيا.. ثم عاد إليها بعد الفراغ منها!

عندما انتهى الحاج اسماعيل من صلاته، نهض واقفاً وقال:

ـ إنني اسمع صوتاً..

أنصتوا...

obeikandl.com

obeikandl.com

٤ـ عَنْ خَاطِرِك ... يَا أَرْضَنَا ...

obeikandl.com

obeikandl.com

كان الصـوت واضحـاً، ولكنه بدا وكأنه آتٍ من بعيد. صرخ سبتي من مكانه:

ـ عباس.. تايه.. جابر.

ثم استدار بسرعة نحو باب المصعد وقال:

ـ هذا حسن أبوالكبة.

ثم أخذ يصيح وهو يضرب بقبضته على الباب:

ـ حسن.. حسن أطرش.. حسن كبة.. أطرش حسن.. كبه حسن..

ثم راح يصب عليه سيلاً من الشتائم القذرة عليه وعلى أبيه وأمه وبائع الكبة وآكلها وعاملها!!

ثم انحنى، وأخـذ الحقيبة التي كانت قد سقطت من يده.. وضرب بها باب المصعد عدة ضربات وهو يردد:

ـ أطرش حسن.. أطرش حسن.. أطرش حسن..!

ثم ترك جسمه الكبير يسقط، وجلس في الزاوية، وفتح رجليه، واحتضن الحقيبـة السوداء.. ثم رفع رأسه ينظر إلى المروحة في سقف المصعد، وقد بدت عيناه شديدتي الاصفرار، وقال بصوت مريض متعب:

ـ إنني أشعر بالبرد..

ضغط السيد صبحي على المفتاح فتوقفت المروحة. ثم جلس في الـزاوية المواجهة لسبتي، وجلس عبدالفتاح إلى جانبه.. ثم

جلس الحاج اسماعيل وهو يقول:

ـ يا الله.

ألقى سبتي الحقيبة بين رجليه، واستند على كفيه، ومال برأسه إلى الجهة اليسرى، وفتح فمه الكبير، وراح في إغفاءة عميقة!. ثم أخذ يلوك بفمه كأنه يمضغ شيئاً! وأشار السيد عبدالفتاح إلى المدير أن يجلس، فرفض بإشارة من يده، فتبسم السيد صبحي، ومال السيد عبدالفتاح عليه وقال هامساً:

ـ المديرون لا يجلسون!!

ثم تنهد، وأغمض عينه، وراح يستعرض مع نفسه سلسلة أيامه السابقة..

انتقل من أرض.. إلى أرض.. إلى أرض..

إلى العراق..

إلى بغداد..

.....

قبل عشرين عاماً..

كنت أعيش في قرية، صغيرة، جميلة.. في فلسطين..

إجزم..

عطر العطر نسيمها.. وتبر التبر أرضها.. وسحر السحر جوها!

إجزم..

يا مربع الصبا..

أمي وأبي وأقاربي كانوا هناك.

في صباح يوم..

لا أتذكر أي يوم . .
الصورة الرهيبة استقرت في ذاكرتي . .
في صباح يوم . .
مزق هدوء القرية أصوات محركات سيارات يهودية .
أحاطت السيارات اليهودية بالقرية من كل جانب .
نزل الجنود يحملون بنادق رشاشة . .
أجبرونا على الخروج من منازلنا والوقوف بالعراء . .
أخرجونا كلنا . .
لم يبق في القرية كبير ولا صغير . .
أمرونا بالركوب في السيارات . .
وسارت بنا . .
إلى أين . . ؟
ماذا يريد منا هؤلاء؟ . .
لم يستطع أي وجه من الوجوه الحزينة التي تحيط بي أن يسعفني بجواب .
إلى أين يريدون أن يذهبوا بنا . . ؟!
النساء يحتضن أطفالهن كأنهن يخشين أن ينتزعوا منهن .
والرجال تدور في رؤوسهم وترتسم على وجوههم ألف كلمة حائرة!
وعجلات السيارات تدوس على قلوبنا!
لا أدري مقدار المسافة التي قطعتها . .
ولكنها سارت . . وسارت . . ودارت . .
ثم وقفت .
وأقبل الجنود اليهود يأمروننا بالنزول .

obeikandl.com

هذا مرج بني عامر. .
المرج الجميل الوديع الأخضر.
المثقلة أشجاره بالبرتقال. .
هذا مرج بني عامر. .
استقبلنا المرج بكل حب وحنان. .
قضينا بعض الوقت. . تناولنا خلاله الطعام.
ثم أمرونا بالركوب في السيارات. .

شعرنا بحنين المرج إلينا. .
أشجار البرتقال تميل إلينا. .
طيور الأيك تودعنا. .
لم نملأ صدورنا من هوائك العطر. . يا أرضنا العزيزة!!
لم نملأ عيوننا من رياضك الخضر يا بلادنا الحبيبة!!
. . . . . .
كانت الأشجار تتشبث. . تريد أن تتعلق بنا. .
كانت الأرض تبكي. . تريد بقاءنا. .
وقلوبنا أيضاً تريد. .
وعيوننا أيضاً تريد. .
ودموعنا هطلت تريد. .
واندفعت السيارات. .
لم تعد بنا إلى قريتنا. .
لم تعد من نفس الطريق الذي أقبلت منه. .
سارت في غير الاتجاه الذي أخذتنا منه. .

obeikandl.com

لوّحت الأشجار بأغصانها . . تودعنا . .

والأرض . .

والسحاب الأبيض . .

والطيور الصغيرة التي لم تسعفها أجنحتها الصغيرة للحاق بنا . . !

ومضت السيارات . .

ومن خلال السيارات . .

ومن خلال الصمت الحزين . .

من خلال الألم الذي امتلأت به الصدور.

ارتفع صوت جميل حنين حزين . .

امرأة من بلادي . .

من قريتي . .

من عائلتي . .

راحت تودع بلادي الحبيبة . .

«نحن نوينا على السفر . . عن خاطرك يا أرضنا».

فانفجرت القلوب بالدموع . .

وانخرط الجميع في البكاء . .

وشعرت بقلبي يتمزق . .

وأردت أن أصرخ . . !!

قوم يقبلون من آخر الدنيا يأخذون مني بلادي . .

يأخذون أرضي . .

يأخذون قريتي . .

obeikandl.com

يأخذون بيتي . . ومتاعي . . وما أملك . .

ثم يقذفون بي إلى الحدود . .

قذفوا بي في وجه سبع دول عربية ملأت إذاعاتها الدنيا زعيقاً ونعيقاً . .

أهكذا تفعل القوة الظالمة؟!!

يسلبون داري . . قريتي . . بلادي . .

وملوك الطوائف يتصارعون بينهم . .

والأندلس تضيع . .

والأرض تغتصب . .

وشعبي الحبيب يشرَّد . .

آه يا أندلسي الحبيبة . .

يا فلسطين العزيزة . .

يا منزل الرسل . .

يا مقر الخليل . .

. . . . . .

. . . . . .

كنت صغيراً آنذاك . .

ولكني كنت أفهم . . وأعي . . وأتألم . . وأشعر بما يشعر به الرجال

أقسمت أن أعود . .

أن أحرر أرضي . . قريتي . .

أن أسترد داري . .

وإذا مت . .

obeikandi.com

فسيبقى هذا الصوت.

هذا القسم..

يحرك أطفالي..

يثير أحفادي..

حتى يقف واحد منهم ذات يوم..

على قبري..

ويقول:

ـ ابشر يا أبي.. لقد عدنا..

وعادت أرضنا..

لنا.....!!

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

٥ ـ سَنَوات الجَفَـاف ...

obeikandl.com

لا أدري لماذا لم أستطع أن أنسى ذلك الصوت المودع الحزين . . إنه يطرق عقلي وقلبي . . ويرن في أذني صباح مساء . . يعيش مع كل دقة من دقات قلبي . .

عن خاطرك يا أرضنا . .

ذهبت صاحبته إلى سوريا . .

وجئنا مع من جاء . . إلى العراق . .

إلى بغداد . .

في بيوت صغيرة . .

حقيرة . .

قديمة . .

رطبة . .

مظلمة . .

في محلة كان يسكنها اليهود . .

نبذونا!!

في قنبر علي . . تحت التكية . . سوق حنون . . (أبو سيفين)

في ملاجىء هنا وهناك . .

نبذونا!!

وعلى جبيننا كتبت كلمة : لاجىء .

بكل ما تحمل من ذلة وعار وهزيمة!!

أنا أرفض . .

obeikandl.com

أرفض هذه الكلمة الذليلة الهزيلة الهزيمة التعسة . .

إنني مهاجر . .

وسأعود إلى القدس كما عاد المهاجرون إلى مكة!!

أيظن هؤلاء الغرباء . . أننا كالهنود الحمر يمكن التغلب علينا وسلب أرضنا وخيراتنا؟!

ألم يقلبوا صفحات التاريخ؟!

هذه الشجرة الخبيثة الضارة التي غرست عنوة في أرضنا لا بد أن تقتلع!!

وسنعود إلى أرضنا . .

نحن المهاجرين . .

تتقدمنا راية محمد ﷺ .

الرّاية البيضاء الخفاقة التي قادت المسلمين من نصر . . إلى نصر . . إلى نصر . . إلى عز . . إلى مجد!!

إنا على موعد يا قدس فانتظري . .

هذا شطر من بيت لقصيدة رائعة ألقاها شاعر شاب في قاعة الشعب في بغداد . .

وارتفعت لافتات تحمل البيت بكامله . .

وخط على الجدران . .

إنا على موعد يا قدس فانتظري . .

يأتيك قبل طلوع الفجر جرارُ . .

لا . .

لا شاعر الإسلام . .

ليس قبل الفجر إلا الظلام . .

قبل طلوع الفجر لا يتحرك شيء . .

ولكن . .

عند طلوع الفجر . .

الفجر الجديد . .

فجر هذه الأمة الذي طلع على العالم مرةً، فأيقظه وأنقذه . .

وتقدمت جيوشه الظافرة المظفرة إلى امبراطوريتي الضر والظلم والفساد فدكتهما!! وأقامت دولة الإيمان!!

دولة الأمن والأمان!!

دولة الحرية . . بكل ما تحمل حروفها الأربعة من صدق ومعنى . .

إنا على موعد . .

يا قدس فانتظري . .

يأتيك عند طلوع الفجر جرارُ . .

في الأيام الأولى من وصولنا إلى بغداد، داخلني يأس قاتل . .

يأس من الحياة، يأس من الأمل في العودة . . يأس من كل شيء . .

كنت أسير في أزقة بغداد، أسيفاً حزيناً يائساً . . أريد أن أعود إلى أرضي . . لأموت تحت شجرة الرمان التي تقف قرب داري .

إنها لا تطيق العيش مع اليهود . .

سيعذبونها . .

وقطتي . .

والدجاجات . .

والديك الأحمر. .

وشاتي الصغيرة. .

ولعبتي. .

والشمس التي كنت أستقبلها كل صباح عندما ترفع عن رأسها الغطاء. .

والوادي الفسيح. .

ونسمتي. .

وشجرتي. .

والعصافير. .

ومرج بني عامر. .

و. . عن خاطرك يا أرضنا!!

كنت أذهب مع الشيخ علي إلى المسجد القريب. . كان المسجد صغيراً رطباً، تغطي أرضه حصران بالية. .

مصابيحه ضعيفة كسيفة خافته. أما خطيب المسجد، فكان شيخاً ضعيفاً مريضاً هزيلاً، محني الظهر، مرتعش اليد، خفيض الصوت. . ثقيل الكلام!!

كان يقف على المنبر وهو يتكىء على سيف اختفى نصله في قراب أسود قديم مغبر! ثم يخرج من جيبه ورقة صغيرة مدعكة، تهتز في يده. . ثم يبدأ بإلقاء خطبته. . فيئن ويخن ويتأتىء ويمأمىء ويقح ويمح. . . . وينتهي من خطبته القصيرة وقد نام أكثر المصلين، ولم يستيقظوا إلا عندما يقول:

- نبهني الله وإياكم من رقدة الغافلين. .

فيسرع بعضهم إلى تجديد الوضوء!!

كان عدد المصلين لا يكمل الصف الأول.. فيهم السيد شاكر المعلم في مدرسة الفضل وعبود أبوالكبة، وخضير أبوالرمان ومحمود الصباغ ومحمد أبوبكر الموظف في شركة دخان الرافدين وعبدالخالق الموظف في أمانة العاصمة وشاب ذكي نحيف من بلادي محمد الحانوتي!

وبعد صلاة.. وراء إمام مريض.. يخرج المصلون!!

كنت أقول للشيخ علي:

ـ لنذهب إلى جامع الحيدر خانة.. أو جامع مرجان.. أو أي جامع كبير..

فكان يجيبني:

ـ لا.. هذا أقرب.

وذات يوم..

تأخر إمام المسجد عن الحضور..

لم يستطع الخروج من بيته بسبب المرض.

فصعد المنبر شاب طويل جميل أبيض.. مشرب بحمرة رائعة.. يرتدي ثياباً وعمامة بيضاء ناصعة. صعد المنبر بخطوات قوية فتية شابة. وألقى بالسيف العاجز جانباً، ووقف أبومجاهد يلقي خطبته بصوت جهوري يتفجر قوة وحيوية وروعة..

فانتفض المسجد بمن فيه..

وراحت العيون تتابع بدهشة ورغبة حركة يده وتعابير وجهه

وسيل كلماته!!

ودب الحماس في كل رجل..

في كل قلب..

في كل حجر..

فتوهجت المصابيح الخافتة، واستيقظت الهمم الراقدة.

وشعرت كأن صلاح الدين..

كأن خالد بن الوليد، قد نهض من قبره، وامتطى صهوة جواده.. ودعا داعي الجهاد.

وهب المسلمون يندفعون..

بكل عزيمة..

بكل فتىً..

بكل بطل..

لتحرير أراضيهم من أيدي الغاصبين.

الله أكبر..

الله أكبر..

وراح بصوته الشاب الشجاع، يفسر كلمات نسمعها كل جمعة ولا نفهم معناها..

«واحفظ اللهم عبيدك الحجاج والغزاة والمرابطين في برك وبحرك من أمة محمد يا كريم».

كانت جيوشنا تدك معاقل الشر والشرك.

كانت جحافلنا تدق أبواب آسيا واوروبا.

كانت أمتنا قوية عزيزة مهابة..

obeikandl.com

كانت قواتنا ترابط في الثغور. . في البر. . في البحر. . في أعالي الجبال.

كانت أمة زاحفة. .

بإسلامها. .

بقرآنها. .

بتعاليم نبيها. .

بهتافها القوي الذي يبعث القوة والشجاعة والإقدام. .

الله أكبر. .

الله أكبر. .

كانت تلاحق جيوش الظلام فتهزمهم، وتقض مضاجعهم.

من هناك جاء هذا الدعاء. . النابض بالقوة والحركة والعزة والمنعة. .

الحجاج الذين يقبلون على بيت الله من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم وليذكروا اسم الله.

والغزاة المندفعين لتطهير الأرض من أرجاس الوثنية الباغية.

والمرابطين للدفاع عن حوزة الإسلام في برك وبحرك من أمة محمد.

الأمة القوية العزيزة العظيمة بعظمة قرآنها وتعاليم نبيها وتأييد الله لها!!

من هذه الأمة سيخرج ألف خالد. . ألف طارق. . ألف صلاح الدين. .

هذه أمة البطولات. .

وأنتم أبناء اولئك الأبطال. .

أين أنت يا خالد بن الوليد!

في أرض الكنانة . . مع رهبان الليل وفرسان النهار . . ؟!

في أبطال العراق . . الذين فتحوا بخارى وطاشقند ووصلوا إلى حدود بكين . .

في أسود الحجاز . . الذين قوضوا دعائم امبراطوريتي فارس والروم .

في فرسان الشام . . الذين فتحوا الهند والسند ووقفوا في وجه التتر وردوهم على أعقابهم . .

من الخليج إلى تطوان ثوارُ . .

شعب يزمجر في أحشائه النارُ . .

إنها نيران . .

تشتعل . . تستعر . . تتأجج . .

تصرخ :

إنا على موعد يا قدس فانتظري . .

يأتيك عند طلوع الفجر جرارُ . .

الجواد الأصيل ينتظر الفارس المقدام . .

والشعب النبيل ينتظر القائد الهمام . .

وإنا على موعد يا قدس فانتظري . .

. . . . . .

أكثر من عشرين عاماً والسياط تلهب ظهر هذا الشعب . . أكثر من عشرين عاماً وسياط التأديب والترهيب تنزل على ظهره . . لكي

obeikandl.com

يخضع . . لكي يخنع . . لكي يركع . . لكي يسلم بكل ما يراد به من هزيمة وشتيمة وعار يطوق به أبد الدهر . .

لكي يكبر الفأر ويحتل مكان الأسد!! .

ليتمادَ الكفر في غيه وبغيه وظلمه وباطله وطغيانه . . وليمض في إذلال هذا الشعب الأبي النبيل الأصيل . .

فستحصد أجياله القادمة ما اقترفت يداه!

فإن الاعشاب الضارة التي زرعها الكفر في أرضنا لا بد أن تموت . . والأمراض والأوباء والرياح النتنة وشجر الزقوم!!

ستذهب كلها . .

سنوات الجفاف ستنتهي . .

وسيشرق على أرضي فجر جديد . .

وستزدهر بلادي بكل ثمر لذيذ وزهر جميل ونبت مفيد!

أشجار باسقة . . وثمار يانعة . . وأنهار رائقة . .

ستنتشر الزهور في كل بقعة . .

ستغني الطيور . .

وتغرد العنادل . .

وتنطلق الغزلان والشياه آمنة مطمئنة ترتع من النبع الزلال . .

لا تخاف ذئباً ولا أفعى . .

لأن عقيدتي لا تنجب الذئاب . .

ولا تسمح للأفاعي بالاقتراب!!

obeikandl.com

obeikandl.com

٦- بِنْت الخَيَّاط ...

obeikandl.com

obeikandl.com

أخذت عقارب الساعة تخفف الوطأ ما أمكن لكي لا تخدش بدقاتها ذلك السكون الشامل الذي لفَّ المصعد ومن في المصعد. وكان المدير يردد النظر بين فترة وأخرى إلى ساعة يده التي بلغت الواحدة والنصف بعد منتصف الليل!. وكانت يده اليمنى تحاول في فترات ليست متباعدة الضغط على مفاتيح المصعد، وفيما عدا ذلك كانت أنامل يديه في صراع مع بعضها، ثم تنتقل بحركة عصبية لا إرادية إلى أذنه إلى الحبيبات البارزة تحت شفته، إلى ذقنه، إلى رأسه، ثم تغوص في جيبه تعد قطع النقود المعدنية فيه!!

كيف يسرع الشيب إلى شارب الرجل قبل رأسه؟ كان الشيب قد غطى شارب السيد عبدالفتاح.. أما شعر رأسه، فلم ينل منه إلا قليلاً!.

فتح السيد عبدالفتاح عينه، بعد أن عاد من جولته في عالم الذكريات.. وسأل المدير:

ـ هل تريد أن تبقى واقفاً حتى الصباح؟!

تمطى السيد صبحي وقال وكأنه يتحدث في نومه:

ـ كبار الموظفين لا ينامون.. إنه مدير!

تبسم عبدالفتاح، وقال مقلداً لهجة المدير:

ـ خمسة أيام قطع راتب!

اضطر المدير إلى الانحناء، فدفع رجل سبتي ليوسع المحل،

ثم جلس غاضباً وقال متوعداً:

- إن غاية ما يمكن أن نلبث في هذا المصعد إلى الصباح.. حتى الساعة السادسة، حيث يأتي الحارس عباس ليتسلم دوره! وسيندم كل منكما على تصرفاته!

ضحك السيد عبدالفتاح قبل أن يتم المدير عبارته، واستيقظ السيد صبحي فتبسم وقال بفتور:

- الحارس الثاني لا يأتي إلا بعد العصر.. وفي أيام العطل والأعياد لا يكلف الحارس نفسه عناء الدخول إلى المؤسسة.. بل يكتفي بالجلوس في المقهى، ثم يأتي لإلقاء نظرة على الباب الخارجي ثم يعود!.. فإذا أقبل المساء.. ذهب إلى بيته!!

أنت تعلم هذا..

- أنت أردت النزول في المصعد.

- أنا؟!

- عبدالفتاح.

تبسم عبدالفتاح وقال ساخراً:

- لو لم تكن معنا لتحرك المصعد.

- المصعد يسع عشرة رجال.

- أنت المذنب الكبير.

اختنق المدير من شدة الغضب وقال منذراً ومتوعداً:

- أنا لا أستطيع أن أتجاوز عن اعتداءاتكم أكثر من هذا الحد.. أنا استطيع أن ابعدكم إلى آخر فرع في المؤسسة.

- إلى سنغافورة..

قالها السيد صبحي وهو يضحك..

سكت المدير قليلاً، راح يبحث عن كلمة يستطيع بها أن يحفظ كرامتـه، ويوقف بها تجاوز هذين الموظفين اللذين كانا قبل ساعة يخطبان وده.

ـ لكن..

ـ تكلم.. نريد أن نسمع قراراً جديداً..

ـ ولكني طيب القلب.. ولا أحقد على أحد.

كرر السيد صبحي عبارته وهو يشير بسبابته:

ـ إنه طيب القلب ولا يحقد على أحد!

ـ أنت المذنب الكبير.

ـ سأخرج من سكرتارية اللجنة!!

ـ لا أريد أن أشترك في أية لجنة بعد اليوم.

تثاءب الحاج اسماعيل، وفرك عينيه ثم فتحهما وقال:

ـ ما زال أمامنا أمل في النجاة.. هل منكم من أخبر أهله باجتماعنا في المؤسسة؟

ـ أنا لم أخبر أحداً..

ـ ولا أنا..

ـ أنـا اخبـرت زوجتي بأني سأعود في الساعة الثامنة.. ولكني لم أخبرها بالاجتماع.

تنهد الحاج اسماعيل وقال:

ـ كلنا وقعنا في نفس الخطأ. لم يبق إلا سبتي.

ـ ماذا تستطيع أمه أن تفعل؟

ـ قد تأتي لتسأل الحارس.. أو تذهب إلى أحد الموظفين.. أو..

obeikandl.com

هز المدير رأسه وقال بيأس:

ـ لا أظن أنها تفعل!!

فتح سبتي عينه اليمنى، وتطلّع في الوجوه ببلاهة.. وفتح فمه كأنه يبتسم، أو كأنه يبكي.. أو كأنه يريد أن يقول شيئا.. ثم عاد إلى النوم وهو يحرك فمه كأنه يجتر الطعام من بطنه!!

ضرب صبحي كفاً بكف وهو يقول متعجباً:

ـ كيف يستطيع هذا أن يستيقظ وينام ويمضغ بهذه السهولة!؟

وراح الجميع ينظرون إلى سبتي الذي أخذ يرطن بكلمات غير مفهومة، ثم سكت ومال برأسه إلى جدار المصعد!

سأل الحاج اسماعيل:

ـ هل نستطيع أن نسمع أذان الفجر؟

نظر عبدالفتاح إلى ساعته وأجاب:

ـ إنها الثانية إلا ثلثاً.

ـ بقي أكثر من أربع ساعات.. أربع ساعات و.. سأل المدير وهو يفرقع أصابعه:

ـ متى يطلع الفجر؟

ـ في الرابعة إلا عشر دقائق.. لا..

في الخامسة إلا عشر دقائق.

ـ إذن بقي أربع ساعات وعشر دقائق.

بادر السيد عبدالفتاح يقول مصححاً:

ـ بل ثلاث ساعات وعشر دقائق.

ـ نعم.

قال الحاج اسماعيل:

- أرجو أن تنبهوني إذا سمعتم أذان الفجر.

فسأل السيد صبحي:

- متى تطلع الشمس؟

- قل متى تشرق الشمس؟

نظر السيد صبحي إلى السيد عبدالفتاح وسأله:

- هل اخطأتُ في التعبير؟

- أظن.. اسأل الأستاذ.

وأشار بطرف عينه إلى المدير.

ولكن الحاج اسماعيل أجاب:

- في السادسة وعشرين دقيقة.

ثم أضاف موضحاً:

- أي أن الفترة بين طلوع الفجر وشروق الشمس ساعة ونصف الساعة.

قال المدير:

- تستطيع أن تنام أربع ساعات.

ثم تمتم قائلاً:

- ولكن النوم يفسد الوضوء.

أجاب الحاج اسماعيل:

- سأتيمم.

- ولكن..

رفع المدير يده إلى جبهته وراح يبحث عن الكلمة التي يريد أن يقولها.. ثم خفضها وقال:

obeikandl.com

ـ إذا حضر الماء بطل التيمم.

ـ وأين الماء؟

ـ في المؤبسة.. على بعد خطوات من المصعد.

ـ هل أستطيع الوصول إليه؟.

أطرق المدير رأسه دون أن يجيب.. ولم يفهم السيد صبحي شيئاً مما دار. وكان السيد عبدالفتاح قد جمع ركبتيه، ولفَّ ذراعيه حولهما، وانحنى برأسه وراح في إغفاءة سريعة.

ساد السكون لمدة طويلة، أغمض الجميع خلالها عيونهم، ومالوا برؤوسهم، وراحوا في إغفاءة قلقة تعبة.. وكان السيد صبحي يحاول أن يمدد رجليه، ولكنها كانت تصطدم بسبتي فيسحبها!

كان أبوه حميد شريف، يشتغل فراشاً في وزارة المالية، في الطابق الثاني من البناية القديمة المهيبة التي خلفها العثمانيون، والتي تطل بساعتها الكبيرة الشامخة على دجلة! كان يذهب معه، فيتركه أبوه يلعب في الساحة قرب الساعة الكبيرة التي كان لدقاتها وقع كبير في نفسه. ومن هناك كان يمتع نفسه بالنظر إلى جانب الكرخ وجسر الشهداء، الذي حدثه أبوه عنه مرات ومرات بأنه قبل أن يشيد كان يقوم مكانه جسر خشبي تحمله قوارب حديد تسمى (دُوَبْ) واحدها يسمى (دوبة). وكان الجسر يفصل كل يوم في الساعة العاشرة.. لكي يسمح للسفن الكبيرة والعالية بالمرور!.. وعندها يقف الناس لمدة ساعة وأكثر.. بانتظار ربط الجسر من جديد..

والعملية تتكرر كل يوم.. في نفس الوقت!..

قال أبوه وهو يضحك:

ـ وهناك التقيت بأمك مع نافع الخياط. فلما سألته عنها قال: إنها ابنة أخي!

ـ وأين أخوك؟

ـ توفي قبل سنوات.

ـ إلى رحمة الله.

ثم تنحنح حميد وسعل.. وقال بصوت خفيض:

ـ أريد أن تزوجني ابنة أخيك.

فتبسم عمها بسرور، وشعر كأن حملاً ثقيلاً يزاح عن كاهله وقال:

ـ سأسألها.

ـ تسأل امها؟

ـ إنها يتيمة الأبوين.. إنها تعيش في بيتي.

فامتلأ قلبه سروراً وقال متفائلاً:

ـ إنها موافقة إذن.

ـ سأسألها.

ـ متى أراك؟

ـ تعال إلى المحل.. غداً.

. . . . . .

أخبرها عمها بأن حميداً يشتغل موظفاً في وزارة المالية، وأنه يملك بيتين في محلة جديد حسن باشا خلف أمانة العاصمة. فوافقت مسرورة.. ورزق منها بثلاث بنات وولد واحد. وعانت أمه الأمرَّين من أبيه! كان بخيلا مقتراً شحيحاً مرابياً.! ومع بخله وتقتيره

كان سكيراً، لا يمر عليه يوم دون أن يلوث فمه بشرب الخمر!! وكان إذا شرب في الليل، لم يعد تلك الليلة إلى البيت.. كان يقضي الليل في أحد الفنادق الواقعة في الحيدر خانة.. كان يعرف أصحابها، كان بعضهم يقترض منه النقود أحياناً فيضطر إلى السماح له بالمبيت في الفندق دون أن يأخذ منه شيئاً!

وقد عاد ذات يوم من الدائرة، فرحاً مسروراً.. يفرك يديه ويضحك. وقد أكل على غير عادته.. أكل بنهم.. وشرب عدة أقداح من الشاي بعد الغداء.. لا بد أنه عقد صفقة رابحة.. فما هي؟

سألته زوجه:

- هل اشتريت داراً؟

- عقدت صفقة تساوي ألف دار.

- خيراً إن شاء الله.

- أقرضت حسقيل خمسين ديناراً.

هل جن الرجل؟..

يقرض رجلاً خمسين ديناراً فيعود مسروراً هذا السرور؟..

وقبل أن تسأله مضى يقول:

- سأشرب الخمر مجاناً.

وعندما رأى وجومها صرخ بها:

- لماذا تنظرين إليّ هكذا.. حسقيل أبوروبين صاحب الحانة المجاورة لملهى الجواهري في الميدان اقترض مني خمسين ديناراً..

أتفهمين معنى هذا؟ . .

هزت رأسها بحزن:

ـ ستشرب الخمر مجاناً حتى يسدد المبلغ.

قهقه صاخباً . . ضاحكاً:

ـ ولا يستطيع تسديده!! سيسدد الربا فقط . . أما المبلغ فلا يستطيع تسديده!

ثم صار بعدها يذهب كل يوم إلى الحانة . . فيشرب ولا يدفع . . حتى تجرأ ذات يوم روبين ابن حسقيل . . وكان شاباً نحيفا هزيلاً، مائل الأنف، مثقوب الأذن، مهمل الشعر، أحول العين اليسرى . . تجرأ ذات يوم بعد أن امتلأ غيظاً وطالبه بالثمن!! فنهره بقوة، وأراد أن يلطمه على وجهه . . وصاح غاضباً:

ـ اذهب إلى أبيك وجئني بالنقود حالاً.

فأسرع شليمو الياهو، وهو خال روبين، وكان يبيع السكاير في سلة مخروطية كبيرة يضعها على الأرض ويجلس بجانب حانة حسقيل! . . أسرع الياهو ـ كما ينادونه في الميدان ـ يتوسل ويعتذر، ويتلفت إلى روبين فينهره ويعنفه، ثم يعود فيعتذر ويعتذر:

ـ أرجوك . . اعتبره مثل ابنك.

ـ لو كان ابني لقطعت رقبته.

ثم أصر على أن يأخذ نقوده كاملةً مضافاً إليها ما ترتب عليها من ربا!!

وأقبل حسقيل يركض، وكان قد ذهب ليشرب كأساً من اللبن من السيد ابراهيم الكردي، أقبل يركض وهو يمسح بكمه فمه

وشاربه . . وكان يرتدي قميصاً أسمر مخططاً وسروالاً أسود تغير لونه!

- نعم . . نعم ماذا تريد؟

- أريد نقودي . . ستين ديناراً.

وأسرع حسقيل إلى دفتر قديم قذر بعرض الكف وطول المسطرة وراح يقلب صفحاته رأسيا وهو يبلل إبهامه الأيمن بفمه كل مرة، وكان يتدلى من كعب الدفتر خيط طويل ربط في نهايته قلم صغير أسود! . . كان حسقيل يقلب الصفحات بسرعة وهو يخنخن:

- أنا سددت إليك المبلغ بكامله مع الفائض . . وربما بقي لي في ذمتك . .

صرخ حميد مقاطعاً:

- أنت سددت . . متى؟

فرفع حسقيل رأسه عن الدفتر:

- أنت تشرب كل يوم مرة . . ومرتين . . وثلاث مرات . . وأنا أنزل ذلك من حسابك.

- تنزل من حسابي . . أي حساب؟

- المبلغ الذي اقترضته منك . . الخمسين ديناراً.

- لماذا؟

- هل كنت تريد أن تشرب الخمر مجاناً . . ؟!

أيد شليمو الياهو صهره فقال:

- هل تشرب الخمر مجاناً؟

ونزل صالح فيحا، صاحب ملهى الجواهري . . وكان يرتدي قميصاً أبيض وسروالاً أصفر، ووقف يستمع إلى ما يدور ثم أيد كلاً

من حسقيل وشليمو :

ـ لا يوجد في الميدان من يبيع الخمر مجاناً!

وفوجىء حميد بهذا، ولم يكن قد أعد للأمر عدته فصرخ كالمجنون :

ـ أنت لص . . أنا اشرب ثلاث مرات في اليوم؟

وعثر حسقيل على الاسم، فراح يجمع ويبلل القلم بفمه ثم يكتب . . ثم قال :

ـ أنت مدين لي بخمسة دنانير.

ـ أنا؟!

ـ إن أصل المبلغ خمسون ديناراً، والربا لمدة ستة أشهر خمسة دنانير، وأنت شربت بستين ديناراً . .

انظر . . اجمع أنت . . أنا ضعيف بالحساب .

ودفع الدفتر إلى صالح فيحا . . فألقى عليه نظرة سريعة ثم اعاده وهو يقول :

ـ ستين ديناراً ونصف الدينار.

ودفع حسقيل الدفتر إلى شليمو، ولم يكن هذا يعرف القراءة والكتابة، ولكنه القى نظرة سريعة كما فعل صالح فيحا ثم قال :

ـ اي . . خمسين ديناراً ونصف .

فصرخ صالح وحسقيل مرة واحدة :

ـ ستين ديناراً . .

ـ اي . . اي . . ستين ديناراً و (غبع) .

ـ ونصف الدينار.

- ونصف . . ونصف . . ونصف الدينار . . أنا قلت ونصف .

كان روبين يقف خائفاً، غاضباً، يتنقل بنظراته القلقة بين أبيه وخاله وحميد وصالح فيحا . . والرجال الذين تجمهروا ليشهدوا نتيجة النزاع، أو نهاية المهزلة!!

ـ ولم يدر حميد ماذا يفعل . . فصرخ بجنون :

- قبل ثلاثة أشهر . . أنا أقرضتك النقود قبل ثلاثة أشهر أيها اللص . هل يستطيع رجل أن يشرب خمراً بخمسين ديناراً في ثلاثة أشهر؟!

وتدخل صالح فيحا بخبث، وقال وكأنه يريد أن يصلح :

- لا تذهب إلى الشرطة . . سيدفع لك ما بذمته أنا أكفله وتبخرت آخر ذرة من الصبر . . فصرخ حميد :

- أنت تهددني . . ! .

وهجم على الثلاثة يريد أن يبطش بهم :

- أنت صاحب المبغى الكبير . . أنت تهددني . .

وحال الناس بينه وبينهم، وهرب صالح فيحا صاعداً إلى الملهى . . وانزوى حسقيل في آخر الحانة وقد اخفى وراءه ابنه روبين . واستطاع شليمو أن يحمل سلة السيكاير ويدلف بها في الشارع القريب المؤدي إلى شرطة السراي!

ولم يستطع حميد أن يتحمل الصدمة العنيفة، والهزيمة الشنيعة، والخدعة الخبيثة، فراح يضرب على رأسه ويسب الحكومة التي سمحت لحسقيل بفتح المحل، ونوري السعيد والوصي . . وتجمع الناس يضحكون . . وراح يترنح في الشارع وهو يسب الحكومة ونوري السعيد والشرطة ينظرون إليه ويضحكون . .

ثم سقط على وجهه قريباً من المصور عبد الرحمن . . وبقي ممدداً على رصيف الشارع إلى الصباح ! ! وعندما استيقظ ، توجه إلى بيته ، وانهال على زوجته سباً وضرباً :

ـ كيف تتركينني أنام في الشارع يا فاجرة . . اذهبي إلى عمك . . خذي ابنك معك . . لا أريد أن أراكما .

وصار يدفعها بقوة ليخرجها من البيت ، وهي تحاول أن تتناول عباءتها فلا تستطيع ! وأخيراً استطاعت أن تمرق إلى بيت محمود المتولي وهي تبكي . ثم طلبت إلى أم حكمت أن تذهب إلى البيت لتأتيها بعباءتها . ولكنه أغلق الباب ولم يرد على أحد ! !

استعارت عباءة من أم حكمت ، وذهبت إلى عمها كسيرة أسيفة باكية . فنهض غاضباً مزمجراً :

ـ ذلك الحيوان . . يجب أن ألقنه درساً .

ولكنه تريث . . وعاد فجلس وهو يتعوذ بالله من الشيطان الرجيم . ثم طلب إليها أن تذهب إلى بيته ، وأن تترك الصبي معه في المحل .

وفي المساء ذهب صبحي مع نافع إلى بيت عمه . وكان عمه . . أو عم أمه . . قد انتقل من الكراج إلى الأعظمية ، محلة السفينة . باع بيته القديم في باب السيف واشترى بيتاً ـ ليس جديداً ـ ولكنه أفضل من بيته القديم ، قريباً من بيت السيد نصيف القبطان والدكتور سليم خياط خلف معمل صالح أفندي . وهناك . هناك بدا له كل شيء جميلاً جديداً جذاباً . .

رأى ابنـة عمـه ربحية . . التي تكبـره سنـاً، جميلة صبيحـة ممتلئة . . بعينين لوزيتين، وأنف مستقيم، وشعر أسود ناصع لامع، وثوب أبيض تنتشر عليه أوراد صغيرة متباعدة متقاربة . . كأن قماشه قد صنع لها وحدها دون غيرها!! . .

كانت تتحرك بسرعة وخفة . . تضحك . . تمزح . . تصخب . . تستعمل يدها ورجلها ولسانها! . وعندما صعد عمه إلى السطح بعد تناول العشاء . . انفردت به . . شدته من شعره الأصفر بقوة جعلته يكتم صرخـة كادت تفلت من فمـه! ثم نظرت في وجهـه كأنهـا تتفحصه، ثم قالت وهي تضربه براحة يدها اليمنى على جبينه :

- يشبه وجه اليهود . .

لم يرد عليها . . ولم تتكلم أمه . . ونام تلك الليلة فوق السطح وهو يتمثل وجه ربحية الجميل وهزلها وجدها ومرحها! ولم يجد في قبضتها له من شعره، وقسوتها عليه، إلا بلسماً لقلبه! وتمنى لو قضى العطلة الصيفية كلها في بيت عمه . لقد أنهى الصف الأول المتوسط بنجاح . . وسينتقل إلى إحدى المدارس المتوسطة في الأعظمية . . ليكون قريبا منها . . يتنسم عطرها الفواح! . . ليت العطلة تمتد . . وتمتد . . وتمتد . . لتشمل العمر كله!!

وفي الصباح، أخذه عمه إلى المحل، بعد أن أوصى الأهل بأنه سيرسل صبحي ليأتيه بطعام الغداء . وكاد صبحي يطير من الفرح . . ستتهيأ له فرصة النظر إليها وقت الظهر . ولم يلبث مع عمه إلا قليلاً حتى سأله :

ـ هل أذهب لآتيك بالغداء؟

فضحك عمه وهو يقلب قطعة القماش على المنضدة الكبيرة التي أمامه، ويمسك بالمقص وقال:

ـ ستذهب عند أذان الظهر.

وأخذ يسرع كلما سنحت له الفرصة إلى جامع السراي ليسأل:

ـ هل أذن لصلاة الظهر؟

وقبل الأذان بقليل، وضع عمه في يده عشرين فلساً وقال:

ـ اذهب الآن.. اركب السيارة من باب المعظم.. وإياك والسير في وسط الشارع. ولا تقف في الطريق.

لم يكن في حاجة إلى توصية.. كان يريد أن يطير.. أن تطوى له الأرض.. أن يخطو خطوة واحدة فيجد نفسه في بيت عمه!! إنه يريد أن يرى ربحية.. كان قد رآها قبل سنين.. في ذلك البيت.. القريب من بيت الدكتور تحسين العسكري.. في باب السيف. كان صغيراً.. وكان اهتمامه ذلك اليوم بالحلوى التي كانت تحملها بيدها وتغيظه بها.. كانت الحلوى تتدلى من يدها كأنها جدائل، أو كأنها شريط يحمل ألوان قوس قزح مع لون فضي رائع.. عنبر ورد.! ولم تلبث أمه كثيراً، فقد عادت بسرعة.. ولم يذق عنبر الورد.. ولم ير شكله مرة أخرى، لأن بائعه لا يعبر إلى جانب الرصافة.. ولكنه أدرك اليوم.. بأنها العنبر.. وهي الورد.. وما كانت تلك الحلوى.. العنبر الورد.. إلا لتذكره بها!!. وكان لعمه أربعة أولاد أصغر منها.. أما أمه فكان لها ثلاث بنات أكبر منه تزوجن قبل سن الزواج!

وفكر وهو يركب الدرجة الثانية من سيارة مصلحة نقل الركاب. لماذا لا يفاتح عمه بالزواج منها.. ولكن.. كيف يفاتحه وقد طرده أبوه وطرد أمه!!

ماذا يقول لعمه؟. يقول أريد أن تزوجني ابنتك وتقوم بإعالتي وإعالتها؟!.. لا.. سيقول له.. إنني على استعداد لأن أعمل معك مدى الحياة.. بلا أجر.. على أن تزوجني ربحية! ووجد الأمر سهلاً يسيراً.. لا بد أن يفاتح عمه عندما يعود إليه بالغداء.

وعندما وصل إلى بيت عمه، دفع الباب ودخل.. ورآها تقف منتصبة أمام المرآة، وهي ترتدي ثوباً جميلاً جديداً أحمر.. وكانت تتحدث إلى امرأة طويلة نحيلة سمراء تقف قريباً منها وهي تقول:

- خذيه من هنا قليلاً.. ومن هنا..

كان يود أن يقول.. إنه أجمل ثوب، على أجمل فتاة.. كان قلبه الصغير يهتف بهذا، ولسانه لا يجرؤ.. لا يستطيع. وبينما كان غارقاً في أحلامه العذبة، سمعها تصرخ به:

- من سمح لك بالدخول.. متى دخلت؟

ثم تقدمت نحوه في ثورة:

- لمَ لمْ تطرق الباب؟

- جئت آخذ الغداء لعمي.

- عمي في عينك وعين أمك وعين أبيك.. ابن الـ.. ثم دفعته في صدره.. وأدارته ودفرته في ظهره وهي تصرخ به:

- أنت تقف خارج البيت. ولا تدخل إلا بعد أن تطرق الباب.. وحتى إذا طرقت الباب فلا أسمح لك بالدخول.

وأرادت أمه . . وكان تغسل الملابس في طست كبير . أرادت ان تدافع عنه :

ـ إنه بيت عمه .

ـ اخـرسي أنتِ . . جريدة طريدة . . اذهبي إلى زوجـك السكير الحقير الابخر . .

ثم دفعته خارج البيت وأغلقت الباب بعد أن ضربته على رأسه . ووقف خارج البيت وهـو لا يسمـح لعينه بالبكاء . ! لو استطاع أن يصارحها . . أن يصرخ في وجهها . . إنني . .

وأرادت أمه أن تناديه ، بعد أن وضعت أواني الطعام المصنوعة من الألمنيوم الفضي الـلامـع ، والتي تشبه القدور الصغيرة ، فوق بعضها وأغلقت الثالث بالغطاء وحملت «السفرطاس» لتسلمه إياه . . ولكنها نهرتها :

ـ لا . . لا تنادهِ .

ثم أخذت (السفرطاس) . . وذهبت إلى الباب ففتحته ثم دفعت إليه وهي تقول :

ـ خذ . . ولا ترني وجهك . . ابن الـ . .

فأخذه منها ، ووقف يتأملها بوجهه الأبيض الأصفر وفي عينيه توسل وعتاب ، وحب وإعجاب ! !

لا .. لا يستطيع أن يفاتح عمه بالزواج منها .. عليه أن يكسب ودهما أولا . لو تسمح له بالكلام معها !! . وفي المساء , كان يلوذ بعمه , فيدخل معه .. وكان يجد أمه تبكي أحيانا !!

كانت تهينها .. تقسو عليها .. وتضربها !!

حاولت أمه أن تشكوها إلى أبيها . . فزادت الطين بلة ! .

صارت تعاملها بأشد وأقصى مما كانت عليه . وتمنت أمه لو ماتت قبل أن ترى نفسها مهينة ذليلة كسيرة أسيرة في هذا البيت الظالم !

وعلى الرغم من كل ذلك . .

وعلى الرغم من كل ما عانى وعانت أمه وتحمل من ضربها وسخريتها وقسوتها . .

وعلى الرغم من كل ذلك . .

كانت ملء قلبه وروحه ونفسه ! !

وفي الليل ، عندما ينفرد مع أمه . . كانت تحاول أن تبثه همومها وأحزانها ومتاعبها مع ابنة عمها ربحية . . فكان يستمع إليها بصمت وتمنت أمه لو شاركها بعض همومها . . لو تكلم ! !

وتمنى هو . . لو شاركته أمه بعض همومه ، ولكنه لم يستطع أن يتكلم !

بقي ما يشعر به حبيساً في نفسه ، في قلبه . . بين ضلوعه .

- هل رأيت أباك ؟

- لا . . لم أذهب . .

تنهدت . . ثم تمتمت بعد فترة صمت :

- إنه لا يريد أن يسأل عنك .

وبعد فترة طويلة ظنت بأنه قد نام . . سألها :

- هل تريدين أن أذهب إليه ؟

- أريد أن تذهب إلى البيت فتأتيني بالثوب الوردي والثوب الأزرق

المنقط . . والعبـاءة . . العبـاءة الجـديدة . . والحـذاء الخفيف (الشحاطة) هل تستطيع؟

ـ سأحاول .

في الصباح أخبرت عمها بذلك . . فقال :

ـ أرى أن يذهب الآن . . لأن أباه سيخرج إلى الدائرة بعد ساعة، وربما لم يعد إلى البيت بعد الظهر.

ثم التفت إلى صبحي وقال :

ـ اذهب الآن . . وستتناول فطورك عندما تعود .

وامتثـل صبحي . . وخـرج يملأ عينه ونفسه من هذه المحلة الجـديدة ذات الشـوارع النـظيفـة الفسيحة . . ذات الرياح الندية الرخية، المغسولة بمياه النهر المعطرة بعطر ربح !! ولما وصل إلى بيت أبيه طرقه . . ثم طرق الباب مرة ثانية . . فسمع سعالاً شديداً وصوتاً صارخاً يهز البيت :

ـ مَن؟ . .

ـ أنا . صبحي .

ولم ينتظر كثيرا . . فقد فتح الباب، ووقف أبوه ينظر إليه وكأنه لم يره منذ سنين .

ـ صبحي .

ـ نعم يا أبي . .

فترك الباب مفتوحاً ودخل وهو يقول :

ـ هل تناولت فطورك؟

ـ سأتناوله عندما أعود .

obeikandl.com

- بل ستأتي معي.

ثم أشار بيده وهو يسعل بشدة:

- اجلس هنا.

جلس على الكرسي الخشب الذي أشار إليه، وانتظر وهو يهز جسمه فيصر الكرسي صريراً حلواً.. وراح أبوه يحلق لحيته ويعنى بقص شاربه. ثم غسل وجهه وارتدى ملابسه.. ثم سأله:

- هل أرسلتك أمك؟

- نعم.. إنها تريد العباءة الجديدة.. والثوب الوردي.. والثوب الأزرق المنقط.. و..

وحاول أن يتذكر الشيء الآخر.. ولكنه نسي!.

رأى أباه يتجه إلى خزانة الملابس فيفتحها، ثم يحمل الثوب الوردي بيده ويتأمله كثيراً، ثم يرفعه إلى أنفه فيشمه.. ثم يلفه بعناية كأنه يخشى أن يصيبه شيء.. وفعل نفس الشيء بالثوب الأزرق.. ثم أحضر فرشاة فنظف ذيل العباءة، ولفها بعناية فائقة ثم دس شيئاً ملفوفاً بورق سميك بين الثياب ولف الجميع بمنديل كبير أصفر.

ونظر إلى أبيه بارتياح.. لأول مرة يراه في هيئة محترمة نظافة وبزة وهنداماً.. إنه يشبه إلى حد كبير ذلك المدير الذي يجلس في قسم في وزارة المالية، والذي إذا أشار بيده أجابه الموظفون: نعم أستاذ.

كم تمنى أن يرى أباه جالساً مع الموظفين في أكبر قسم في أحسن موقع في أجمل بدلة!! ولكن.. وليس بعد لكن غير الحسرات!! إنه يتعاطى الربا والمكر والعربدة.

حمل اللفة، وسار وراء ابيه . . في شارع ضيق تنهض البنايات عالية على جانبيه فلا تسمح لنور الشمس بالوصول إليه . . ثم المصانع الصغيرة ثم المطابع ثم محلات التصحيف والتجليد ثم الحوانيت ثم شارع الرشيد . . حيث يوجد محل لبيع الكاهي مع القيمر قريباً من جامع الحيدرخانة . .

جلس مع أبيه يأكل، تمنى لو حمل كاهية مع قطعة كبيرة من القيمر وقدمها لها . . بل يقدم واحدة لها وواحدة لأمه . . ولكنها ستضربها في وجهه وتدفعه فترميه خارج البيت وتغلق الباب وراءه!

لم يرفع رأسه إلى الحاضرين. كان جالساً وعينه على الطعام وأحلامه وفكره وقلبه يتردد ويتلفت ويحوم حولها . . آه . . ونهض أبوه وهو يقول :

ـ الحمد لله .

ثم ذهب فغسل يديه وفمه وحمل كيساً يحتوي على كاهية وقيمر وقال :

ـ خذ هذه معك .

أبوه ينظر إليه وكأنه

ـ ولكني شبعت .

ـ خذها معك .

حمل لفة الملابس، والكيس الورق الذي يحتوي على الكاهية . . وودع أباه وسار نحو باب المعظم ليركب السيارة إلى الأعظمية , بينما أتجه أبوه إلى السراي .. إلى وزارة المالية . وعندما وصل إلى البيت , دفع الباب قليلا , ونظر .. وأنصت , فلم ير ولم

يسمع صوت ربحية . . ولكنه رأى أمه تنزل السلم وتشير بيدها :

ـ ادخل .

ودخـل حامـلاً إلى امه لفة الملابس والكيس . . وفتحت أمه اللفة ، ورأت الشيء الملفوف بالورق السميك فقالت :

ـ هل وضعت الحذاء هنا؟

فأجابها معتذراً :

ـ لقد نسيت .

ولكنهـا فتحت الـورق السميك فوجدت حذاءً جديداً جميلاً يلمع فلما رأى ذلك تبسم وقال :

ـ لقد وضعه أبي .

ثم أضاف وقد رأى علامة الارتياح بادية على محياها :

ـ لف الثياب بعناية . . وتناولت الفطور معه . . و . .

ـ وبعث إليك بالكاهي والقيمر.

فتبسم وهو يهز رأسه .

في تلك المحلة استطاع أن يتعرف على بعض الشباب الذين هم أكبر منه سناً . كانوا يختلفون عن بعض الشباب الذين يعرفهم ، كان هؤلاء يبادرونه بالسلام كلما رأوه . .

لم يكن يقف معهم كثيراً . .

ولا يتحدث معهم إلا نادراً . .

ولكنه كان يشعر باحترام كبير لهم . .

خالد الزبيدي ونوري القبطان وهشام العمري و . . وشاب آخر أكبر الثلاثة سناً . . خليل اسماعيل نوح .

عندما عاد مع عمه في المساء.. لم يجد أمه.. قالت أم ربحية:

ـ جاء حميد قبل المغرب فصالحها.

قال عمه:

ـ لمَ لمْ ينتظر حتى أجيء؟

ـ أراد أن ينتظر.. ولكن ربحية أشارت عليه بأن يأخذها ويذهب خشية أن تتأخر.

ولما دخل عمه ليغير ملابسه.. نزلت ربحية وهتفت به:

ـ اذهب إلى أمك.. لا أريد أن أرى وجهك.

ونهرتها أمها بصوت ضعيف:

ـ دعيه يتعشى.

ـ يأكل سماً وزقوماً.. ليذهب إلى أمه.

قال متردداً:

ـ أريد أن أسلم على عمي.

ـ لا تسلم على أحد.. اخرج.

أرادت أن تهجم عليه لتمسكه من شعره وتجره.. ولكن أباها خرج فصاح بها:

ـ أين يذهب طفل مثله في هذا الليل؟!

ثم أضاف:

ـ يا ربحية.. يا ربحية إنه..

فقاطعته صارخة:

ـ سأنتحر إذا بقي هذا الكلب أمام وجهي.

وقالت أمها بتوسل:

obeikandl.com

- لا نستطيع أن نتركه يذهب في هذا الوقت. . إنه صغير.

ولكنه أدار ظهره. . سيثبت لهم أنه يستطيع أن يذهب إلى أي مكان. . وفي أي وقت! وترك الباب مفتوحاً. . وخرج.

ولم يلتفت إلى صياح أمها!

. . . . . .

ماذا يصنع؟

كيف يجعلها تشعر به. . تحن إليه. . تعامله بعطف كما تعامل ابن عمتها؟

ابن عمتها سامي، شاب أسمر مؤدب وسيم يكبرها سناً وثقافة. في نفسه شيء من الغرور، وفي عينيه تطلع إلى المستقبل وإصرار على الرقي في سلم الوظيفة!! لم يكن يحب أن يلتقي بأحد من شباب محلة الدوريين في الكرخ، كان ينظر إليهم نظرة ازدراء واحتقار. . إنه يلتقي بالطبقة الراقية! سيكون له بيت في البتاويين، أو الكرادة الشرقية. . سيشتري قصر شعشوع مهما كلف الأمر.

كان يحدثها إلى أين ذهب. . ومن أين جاء. . وبمن التقى. . ومع من تكلم. . كان السيد سامي لا يحب الأفلام العربية ولا الموسيقى العربية. إنه يحب الأفلام الغربية والموسيقى الغربية.

كان يحدثها عن أصدقائه من غير المسلمين، وكيف يذهب إلى بيوتهم، ويجلس مع بناتهم بلا تكلف ولا خجل. . وكانت تصغي إليه. .

وتضحك. .

وتعجب . .

وتسأله . .

وتستزيده . .

وهو يتحدث، ويبالغ . . ويكرر . .

وهي تصغي إليه بأذنها . . وقلبها . . وحواسها . .

وتتمنى لو تحدث وتحدث وتحدث . ! !

ومرت الأيام . .

والأعوام . .

وراحت ترد كل خاطب يتقدم لطلب يدها . . أملاً في أن يتقدم ابن عمتها لخطبتها . .

ونفد صبر الوالدة . .

فسألته أمامها :

ـ هل تريدها؟

وهز رأسه كالمتغابي :

ـ ماذ أريد؟

ـ هل تريد أن تتزوج ربحية؟

وكان الجواب قاسياً وقاضياً على كل آمالها :

ـ إنني ما زلت في أول الطريق . . كيف أربط نفسي بزواج يقطع علي طريق المستقبل . ؟

ففقدت صوابها . . وصرخت به كالمجنونة :

ـ اخرج . .

ووقفت أمهـا واجمـة . . بينما اندفعت ربحية في ثورة حاملة

حذاءها بيدها وهي تصرخ:

- اخرج ابن الـ. . . . .

فخرج يتعثر. . وضربته بحذائها فأصابت قفاه!!

وألقتها الصدمة على فراش المرض. .

وظن الأطباء أنها ميتة لا محالة. .

وسمع صبحي. .

فكاد يُجن. .

وهرع إليها. .

لم يعد صغيراً كما كان بالأمس. .

لم يعد متردداً. . ولا خجولاً بذلك القدر.

واقترب منها وهي طريحة الفراش:

- ربح. .

لم تفتح عينيها. .

ولم تنظر إليه. .

كانت تظن أنه جاء شامتاً. . متشفياً. . فلم ترد أن تجب أو تنظر إليه.

- سلامتك يا ربحية.

- دعني.

- أنت أحسن. . أليس كذلك؟

- الحمد لله. . الحمد لله. . الحمد لله. .

ومضت ترددها بصوت ضعيف، ثم أغمضت عينيها وراحت في إغفاءة خفيفة. . فلما استيقظت، ظنت أنه قد ذهب. فالتفتت إلى ناحيته. فرأته يطل بوجهه الأزهر وشعره الأصفر. . والدموع

تحاول أن تطفر من عينيه والجفون تمسك بها!

ـ ألم تذهب بعد؟

ـ ليس قبل أن أطمئن عليك يا ربح .

ـ جئتَ تشمت بي . . ابن الـ . .

ـ لا . .

أنا افديك بروحي . .

لم تسمع في حياتها لهجة أرق ولا أجمل ولا أصدق من هذه . . تطلعت إليه :

لم يبق بي شيء يا صبح .

ـ بل أنت كل شيء يا ربح .

فتململت . . وتأوهت . . ثم قالت :

ـ هل جئت لكي تنتقم؟

ـ أأنتقم من روحي؟!

لم تستطع أن تصدق . . لقد ترك سامي في قلبها جرحاً كبيراً لا يندمل بسهولة . . لقد أوصدت باب قلبها ووضعت عليه سبعة أقفال!! . ولكن لم توصد الأبواب وتضع الأقفال وقد ذهب كل ما لديها من رواء وبهاء وجمال كان يأخذ الألباب!

. . . . . .

وصار صبحي يعودها كل يوم . .

يواسيها . .

يشجعها . .

ولم تعد تسبه ، ولا تطرده . . ولا تمسكه من جمة شعره وتقذف

obeikandl.com

به خارج البيت.

بل صارت ترتاح لمجيئه.. بل تنتظر مجيئه.. وتجد فيه بعض العزاء!

وتشجع ذات يوم، عندما رأى إقبالها عليه فسألها:

- هل تتزوجينني؟!

وفوجئت بسؤاله..

لم تكن تتصور أبداً أبداً.. أنه يريد أن يتزوجها!..

فتبسمت.. وقالت:

- أنت تعلم أنني لا أملك القوة الكافية لكي أنهض فأطردك فجئت تسخر مني..

- أنا أسخر منك يا ربحية؟!..

أنا احببتك منذ أول يوم جئت به مع أمي..

لم يستطع ذلك الضرب والشتم والطرد أن ينال من قلبي شيئاً..

كنت أبكي لأنك لا تعلمين كم كنت أحبك..

كنت أتألم..

كنت أقول يا رب متى تنتبه إليَّ.. متى تحس بي.. متى تشعر ربحية بحالي؟!

ليتني أستطيع أن أخرج قلبي وأضعه بين يديك لكي تري بنفسك أنه لا يحتوي إلا على صورتك الحبيبة! لكي يحدثك بنفسه عن نفسه!!

ولم تستطع أن تصدق أذنيها.. فبكت.. وأرادت أن تصرخ

به، أن تطرده، ولكن صوتها لم يطاوعها، فجرت الغطاء فوق رأسها وراحت تبكي . . بصمت.

ونهض وهو يظن أنها ما تزال تكرهه . . وعاد إلى بيته وهو يقلب الأمور . . ماذا أفعل يا إلهي . .

ورأته أمه . . ساهماً حزيناً . . فسألته عن حاله . . وأراد أن يصارح أمه:

ـ أريد أن أتزوج.

وتهللت أساريرها وقالت:

ـ أنا أعرف فتاة اسمها شيرين . .

ـ أريد ربحية.

ـ أمها صديقتي . . أخلاق وجمال . . و . .

ـ أريد ربحية . .

ـ تستطيع أن تراها إذا شئت . .

ـ يا أمي . . يا أمي . .

ـ هل تعرف واحدة؟

فتريث قليلاً، وقال بصوت اجتهد أن يكون مقبولاً:

ـ يا أمي . . أريد ربحية . . ابنة عمك نافع الخياط. فصعقت وصرخت:

ـ من؟!!!!!!

وتمثلت أمامها كل ما عانته منها ومن جورها وقسوتها ووقاحتها وشراستها . .

ـ أنسيت ماذا عملت بي . . ماذا عملت بك . . هل تريد أن تتزوجها

obeikandl.com

لتضربني . . لتسخر مني . . لتطردني . .

ـ يا أمي . . يا أمي . إنها لم تعد كذلك .

ونظر إليها وعيناه تترقرق بالدموع :

ـ إنها تموت . .

ـ إلى جهنم . .

ورفعت رأسها ، وفتحت جيبها وضربت على صدرها :

ـ يا رب .

وصرخ بانفعال :

ـ لا . لا تدعي عليها . .

سأموت وراءها إذا ماتت . . سأقذف بنفسي من فوق الجسر . . سأجن . . سأهيم على وجهي . . سأنام على القبر الذي ترقد فيه حتى أموت فأدفن إلى جانبها . .

وعادت أمه تصرخ :

ـ أنسيت ذلك العذاب؟ . .

ـ لم أكن اشعر بشيء . .

ـ كانت تضربك . . تطردك . . تسبك . . وتضربني . . وتسخر مني . . و . . و . . أأنت مجنون؟

ـ نعم . .

أريد أن تذهبي فتخطبيها لي .

ـ أنا . . ؟!

ـ نعم يا أمي . .

ـ أنا أذهب إلى القبر ولا أذهب إليها . .

ـ أرجوك يا أمي . . أرجوك . .

ـ لو كان أبوك حياً . .

ـ أبي لم يكن يهتم بي ولا بك ولا بأي إنسان . . أبي عاش بعيداً ومات حقيراً . . مات مخموراً على رصيف الشارع أمام مقهى عارف آغا .

وأعرضت عنه فلم تعد تكلمه . .

ولكنه أصر على الزواج من ربحية . .

وذهب إليها في اليوم التالي ، وعاد يسألها :

ـ هل تتزوجينني ؟

وسألته مازحة :

ـ هل ترضى أمك بذلك؟

فأجابها بصدق :

ـ لا عليك بأمي . . سأفرش لك قلبي . . سأضع عيني على الأرض لتطئيها بقدميك . .

فهتفت بانفعال . .

ـ تسلم عيناك .

وأدارت رأسها إلى الناحية الأخرى، وراحت، تمسح دموعها . . ومضت فترة قبل أن تقول بهمس :

ـ وتنسى ؟

ـ أنا لم أتذكر شيئاً . .

ـ تنسى تلك الأيام التي . .

ـ أتذكر تلك الأيام الحلوة الحبيبة . . أنا أعلم أن صورة سامي كانت تحجب عنك كل شخص .

- كان وهماً.

- والأوهام لا تدوم.

- ولكنك أصغر مني..

- إن قلبي لم يتعلق بغيرك.. أبداً..

- ولكنني مريضة.

- ستشفين بإذن الله.

- إن شاء الله.. سأقول لك عندما تتحسن صحتي.

- أنا أريدك الآن.

- قبل أن يزول عني المرض؟!

- إذا بقيت على هذا الفراش فلن يزول عنك المرض.. ولكن، سأنقلك إلى عالمي.. إلى بيتي.. وسيضل المرض طريقه فلا يصل إليك..

- سيزول من قلبها كل شيء إذا أحسنت معاملتها.

- أنت تريد أن تعوضني كل ما فاتني.

- نعم.

فتململت ثم قالت:

- لا أدري كيف أشكرك.

- أن تقبلي..

فتبسمت.. وهزت رأسها.. موافقة.....

وتزوجها..

وزال عنها المرض..

وكتب الله لها حياة جديدة..

وصارت تتودد إلى أمه . . وتحاول أن تمحو عنها آثار أعمالها السابقة .

obeikandl.com

obeikandl.com

٧- المُـديرْ...

obeikandl.com

كان الحاج اسماعيل يعاني في نومه من رؤى قلقة.. كلها تتعلق بالصلاة، والبحث عن ماء للوضوء.. والمدير يفزع من نومه بين فترة وأخرى، فيتطلع في الوجوه ثم يتحسسن جيوبه كأنه يخشى أن يكون قد سرق منها شيء! وانحنى السيد عبدالفتاح على ركبتيه بعد أن جمع رجليه وأحاطهما بذراعيه، وراح في إغفاءة خفيفة.. وقد بدا شعره الأسود السبط تتخلله شعرات بيضاء!

فزع الحاج اسماعيل من نومه وهو يقول:

- هل سمعتم أذان الفجر؟

ثم نظر إلى ساعته وقال منزعجاً:

- إنها السادسة والربع.. لم يبق على شروق الشمس إلا خمس دقائق.

رفع الحاج اسماعيل رجل سبتي اليمنى ووضعها إلى جانب اختها، لكي يفسح مكاناً للصلاة. لكن سبتي عاد وفتحها. فرفعها مرة ثانية ووضعها إلى جانب أختها. ففتحها أيضاً. فحملها ووضعها فوق اليسرى، فأخذ سبتي يحرك رجليه دون أن يفتحهما ثم تركهما على وضعهما!

أسرع الحاج اسماعيل، ففتح كفيه وهو ينوي التيمم للصلاة:

- بسم الله الرحمن الرحيم..

وضرب الأرض، ثم رفعهما وضربهما ببعضهما بصورة أفقية لينفض عنهما التراب، ثم قلب كفيه ونفخ في راحتيه، ثم مسح

وجهه وكفيه. ثم نهض فصلى صلاة السنة ركعتين خفيفتين. ثم نهض مرة ثانية فأقام الصلاة وكبر لصلاة الفجر..

كانت قراءة الحاج اسماعيل قراءة هادئة حزينة.. قريبة من قراءة الحافظ خليل اسماعيل.. لا.. إنها قراءة ذات رعشة ونبرة.. ماذا تسمىٰ هذه القراءة التي جعلت جدران المصعد والمصباح الذي يرسل ضياءً هادئاً وكل شيء ينصت مأخوذاً مشدوداً مبهوراً!!

أي سر هذا الذي يجعل الإنسان يقرأ القرآن مرة ومرة.. وألف مرة.. ويسمعه مرة ومرة وألف مرة.. من الاذاعة.. من التلفزيون.. من القراء.. وهو يرغب في المزيد المزيد.. دون ان يمل أو يتبرم أو.. يا معجزة الله الخالدة!!

وهل بعد هذه المعجزة معجزة؟!

. . . . . .

كان الحاج اسماعيل قد قرأ من قصار السور، وكان المدير يستمع وهو بين النائم واليقظان.. لم يؤد لله ركعة واحدة.. لم يجرب الصيام.. لم يحاول ان يتقرب إلى الله!.. كان..

واستيقظ سبتي قبل ان يسلم الحاج اسماعيل من صلاته.. فصاح بأعلى صوته:

ـ ام جمعة.

فاستيقظ الجميع وهتفوا به:

ـ ماذا تريد؟

فنظر في وجوههم ثم صاح:

ـ ام جمعة.

ـ ماذا تريد؟

ـ اريد ان اذهب إلى الدائرة.

لم يفهم كلامهم.. وظل ينظر في وجوههم.. ثم صاح:

ـ ام جمعة.. فطور.

قهقه الجميع ضاحكين.. محاولين خفض أصواتهم!. قال السيد صبحي:

ـ هل تريد قوزي؟

ـ لا..

ـ هريسة؟

ـ لا..

ـ انت تحب القيمر مع العسل.

ـ لا.

ـ ماذا تحب اذن؟

ـ تطلع في الوجوه كالمجنون، وسأل بخوف وريبة:

ـ ماذا تصنعون هنا؟

ـ نحن هنا من الامس.

ـ لماذا؟

ـ وقف بنا المصعد فبقينا.

ـ لماذا لم تذهبوا إلى بيوتكم؟

ـ انت.. لماذا لم تذهب إلى بيتك؟

حرك رأسه حركة بطئية.. متنقلا بنظره من واحد إلى آخر.. ثم سأل:

ـ من انتم؟

obeikandi.com

ثم صرخ مستنجداً:

- ام جمعة.

- انت في المصعد.

- ام جمعة.

- امك ليست هنا.

- لماذا.. الى اين ذهبت؟

اراد السيد صبحي ان يشرح له حقيقة الموقف ولكن الحاج الذي انتهى لتوه من صلاة الصبح اشار بيده:

دعه ينام.. وسنوقظه عندما تأتي ام جمعة.

- نعم.. ايقظوني عندما تعود.. اريد اربع صمونات تثردها مع الباميا والتمن.

ثم أسند رأسه الى جدار المصعد، ونام.. وراح يمضغ!

هزَّ عبدالفتاح رأسه وهو يردد الشطر الثاني من قول الشاعر:

- واخو الجهالة في الشقاوة ينعم.

وتنهد وهو يتألم بحسرة.. واضاف بصوت خفيض:

- كم يتمنى المرء ان يكون جاهلاً..... احياناً!!

ثم نظر إلى ساعته وقال:

- هذه الساعة أيضاً.. قد ألمَّ بها ما ألمَّ بنا فلم تعد تعرف طريقها..

اجاب السيد صبحي وهو ينظر الى ساعته:

- انها السادسة والنصف.. الا سبع دقائق.

تثاءب المدير وقال، وهو يدفع الكلام من خلال تثاؤبه:

ـ لنحاول مرة اخرى . . لعله يتحرك .

دفن السيد صبحي رأسه بين ركبتيه واحاطه بساعديه، ولم يتحرك السيد عبدالفتاح من مكانه، ولا الحاج اسماعيل فنهض المدير، وأخذ يحاول مع الازرار . ولكن المصعد كان عنيداً فلم يتحرك . . بل ظل يتحدى الرجال الخمسة القابعين في داخله . . سيتعبهم كما اتعبوه مئات المرات صعوداً ونزولاً . . سيجعلهم عبرة لغيرهم فلا يتحولون بعدها من السلالم إلى المصعد . . ابداً!!

عاد المدير فجلس يائساً حزيناً متذمراً مردداً بصورة لا ارادية ما كان يسمعه من امه كلما ألمَّ بها امرُ:

ـ يا الله . . يا مجير المستجيرين يا دليل الحائرين . . يا ارحم الراحمين . ثم راح يفكر في ابنه وامه وزوجه!!

عندما أصبح مديراً للادارة والذاتية، أقبل الموظفون يهنئونه . . وبعد يومين فتح الباب بلا طرق، بلا استئذان، ودخلت . . قامة متوسطة . . خطوات سريعة جريئة . . ابتسامة محيرة . . ! مدت يدها وهي تقول:

ـ تهانينا . .

فارتبك، ونهض واقفاً، وصافحها:

ـ شكراً . .

ـ هذا المكان لا يليق إلا بك .

أجاب متواضعاً:

ـ ارجو ان اكون له اهلاً .

ـ انا عايدة . . عايدة ابراهيم .

- اعرفك . .

اشار اليها بالجلوس :

- تفضلي .

ثم اضاف وهو ينظر إلى ثوبها الوردي الذي انتشرت عليه دوائر صغيرة من كل لون :

- اذا كانت لك حاجة . . فأنا . . (بالخدمة) .

لم يدر لماذا قال لها ذلك . .

لعله أُخذ بمظهرها . . بحركتها . .

كانت تتحدث وقد امسكت بيدها قلم حبر من النوع الجيد، وراحت تشير كأنها معلمة . . أو كأنها مديرة مدرسة !!

قبل ان يجلس على هذا الكرسي ، لم يكن يفكر بها ولا باية فتاة في المؤسسة . كانت تكفيه الهموم والديون والركض وراء المأكل والملبس والمأوى . . !

استطاع ان يشتري قطعة أرض . .

واستطاع ان يبني عليها بيتاً بعد ان غرق في الدين الى أذنيه، وفوق أذنيه . !! حتى صار لا يعرف الدائنين بأسمائهم بل بوجوههم! . ثم اقترض من المصرف العقاري . . فكان الربا المفروض على القرض يساوي المبلغ المقترض بل يزيد عليه !!

ووزع على الدائنين، ولم يستطع ان يغطي جميع الديون، بل بقي مبلغ كبير لا يقل عن المبلغ المسدد! . . وصار راتبه الصغير نهباً للمصرف العقاري والدائنين . . وصار يتبلغ مع امه بالبقية القليلة

الباقية من الراتب!!

★ ★ ★

كان أبوه عبدالمجيد صالح الأقرع، عامل بناء. كان يخرج مع اذان الفجر فيصلي الصبح في جامع الفضل، ولا يعود من العمل الا بعد اذان المغرب.. فيتناول العشاء، ثم ينتظر قليلاً، ثم يذهب إلى الجامع أيضاً لأداء صلاة العشاء، ثم يعود فينام!

كانت هذه حاله في موسم العمل.. في ايام الصيف، فاذا حلَّ البرد، ونزلت الامطار، توقف البناء، وتوقف معه العمل!! وكان ابوه قد استعد لهذه الأيام.. فاشترى للبيت ما يحتاجه طيلة ايام الشتاء من رز (تمن) وحنطة وتمر يابس (جسب) ودهن حر، وكيس فحم وبعض اللحوم المجففة (باسطرمة).

لم ير أباه يصلي في البيت، ولم يحاول الوالد أن يأخذه معه الى المسجد.. ولم تكن امه عزيزة بنت الحجية تصلي.. كانت امرأة ساذجة.

قالت لأبيه مرة:

ـ لماذا لا تأخذ خالداً معك الى الشغل؟

فاجابها بحدة:

ـ لا.. لا اريد ان يعاني ابني ما عانيت.. اريد ان يذهب الى المدرسة.

سألته بفرحة:

ـ متى؟

ـ كلمت اليوم جمال افندي مدير مدرسة الفضل فقال ارسله يوم السبت.

فهتفت، وكأنها لم تصدق ما تسمع:

ـ يذهب ابني إلى المدرسة؟!

فتبسم بفخر وقال:

ـ سيكون مثل عبدالمجيد بن محمد وعبدالرحيم بن عبدالرحمن حبيب.

وذهب الى المدرسة..

وقف امام المدير الطويل الصارم جمال افندي، الرجل الذي استطاع بحزمه وقوة شخصيته ان يضبط المدرسة التي استعصى امرها على المديرين والمعلمين الذين سبقوه. قال أبوه.. كأنه يعتذر عن إقدامه على تسجيل ابنه في المدرسة:

ـ افندي.. انه.. هو الذي اراد.

فقاطعه المدير وهو ينظر الى الطفل مشجعاً:

ـ انه يريد ان يصبح مثقفاً.

ثم طلب الفراش، واشار اليه بالعصا الطويلة التي لا تفارق يده الا اذا غادر المدرسة بعد انتهاء الدوام.. اشار اليه آمراً:

ـ خذه الى الصف الأول.

وفي الصف.. شاهد أستاذاً نحيلاً سحيلاً اسمر، اختفت عيناه الصغيرتان، وراء نظارات سميكة. وقد جلس فوق الرحلة الاولى من الجهة اليمنى من الصف، والتي كانت قريبة من الباب. وقد خلع حذاءه وجوربه، وراح طالب اسمر شديد السمرة يدلك قدميه! وكان

الاستاذ يرتدي بدلة سوداء تغير لونها، ويضع على رأسه الصغير سدارة سوداء أيضاً!

دخل خالد الى الصف..

كان الطلاب كلهم ينظرون اليه. كان يرتدي فانيله جديدة بيضاء بنصف كم.. وسروالاً قصيراً جديداً أسود يستعمل للالعاب الرياضية عادة. وبخطوات حيية خجلة تقدم تتعثر رجلاه برجليه، حتى وصل الى آخر الصف، فشاهد رحلة قديمة مهدمة ما كاد يجلس عليها حتى صرَّت صريراً صارخاً جعلت الصف يضج بالضحك!! فأخذ المعلم.. من مكانه المشرف على الصف كله.. يلوّح بيديه يحاول اسكات الطلاب، ويتلفت خلفه وهو يؤصئص:

ـ أص أص ص ص..

وقفز الطالب الذي كان يدلك قدميه الى الباب فنظر يمنة ويسرة ثم عاد مسرعاً الى عمله وهو يقول:

ـ لم يسمع.

ثم احكم المعلم وضع السدارة القديمة الممسوحة من الاسفل على رأسه، وأشار بيده:

ـ تعال..

نهض خالد خائفاً متردداً خجلاً، وتعثرت خطواته الصغيرة بحذائه الضيق القديم، وتقدم وهو يتوقع صفعة من يد المعلم تطير صوابه! ولكن المعلم الطيب تبسم في وجهه وصافحه قائلاً:

ـ اهلاً وسهلاً بالطالب الجديد.

ثم سأله عن اسمه.. فتبرع الطالب الاسمر، وكان يعرفه:

- خالد الاقرع . .

فضج الطلاب بالضحك . . واسكتهم المعلم وهو يشير بيديه يرفعهما ويخفضهما . . وقال بصوت محذّر خفيض :

- لا يسمعكم المدير!!

وعندما سأله عن مهنة ابيه . . اجاب الطالب أيضاً :

- عامل بناء .

ولكنه استطاع ان يضيف بصوت خفيض ضعيف :

- انه «اسطة» .

- وشجعه المعلم على الكلام فسأله :

- هل تريد ان تصبح استاذاً في البناء مثل ابيك؟

فتبسم ، وقال بعد ان تردد قليلاً :

- اريد ان اصبح معلماً .

ربت المعلم على كتفه مشجعاً :

ان شاء الله . اجلس على تلك الرحلة . . انها افضل . واشار المعلم الى رحلة الى جانب الطالب عبدالرحيم عبدالرحمن حبيب .

تلك كانت بداية رحلته الى المدرسة . ! ومرت الايام ، سوداء حالكة مهلكة . كلها قسوة وجفاف . . فقر وعوز وبذل الجهد في الحصول على كسرة الخبز وقطعة اللبس . . وما تريده المدرسة من اقلام ودفاتر! . وفي الليل ، وعلى مصباح من الصفيح يتصاعد من فتيلة دخان اسود يكب على دروسه يقرؤها ، وينجز واجباته . . !

كان ابوه يواجه الفقر بشجاعة . . لم يتخلف عن اداء صلاة الفجر في جامع الفضل ، كان يأمل ان تتبدل الحال الى احسن . .

ويأتي الله بالفرج!!

وفي اليوم الأخير من الامتحانات العامة للخامس الاعدادي، توفي ابوه! عاد من الجامع بعد صلاة الفجر، لم يذهب الى العمل، قال انه يشعر بألم في صدره، ثم تمدد على سريره المتواضع المصنوع من جريد النخل.. وكان ذلك آخر عهده بالدنيا!!

لم يترك ابوه الا ما يكفي لدفنه.. والا دراهم قليلة استطاع مع والدته ان يتبلغ بها عدداً من الأيام! وكان عليه ان يشتغل هل يشتغل عامل بناء كما كان ابوه؟

كان يريد ان يصبح معلماً.

كيف الوصول الى هذه الامنية العزيزة!

قطع شارع الرشيد كله سيراً على قدميه، واستمر الى شارع السعدون، فالكرادة الشرقية.. ثم عاد بعد ان نال منه التعب، فصعد الى كازينو الرشيد المطلة على ساحة الملك فيصل. وجلس لينال بعض الراحة.. ثم شرب شاياً دافئاً، واخذ يفكر في نفسه ومسيرته الطويلة، كان خائفاً متخاذلاً، متردداً. وقف امام الكثير من المحلات، وحاول ان يسأل اصحابها ان كانوا يريدون عاملاً.. ولكنه لم يفعل!!.. حتى عاد وجلس هنا.. وسيخسر عشرين فلساً..

آه..

لو استطاع ان يحصل على درهم واحد في اليوم، خير له من ان يصرف درهماً!

عندما صعد الى المقهى الصيفي (الكازينو) شعر بالدنيا تدور به، فوقف لحظات قبل ان يجلس الى جانب السياج المقابل لمطعم العاصمة الذي يشرف على الشارع النازل من جسر الملك فيصل. كانت ساقاه تئنان من التعب. كان يتمنى ان يبقى جالساً الى الفجر.. كيف يستطيع بعض الناس ان يحصل على عمل في يوم واحد؟!

قطع سلسلة افكاره صعود رجل طويل نحيل معصور يرتدي بدلة حمراء داكنة ورباط عنق قديم ويضع على صدره وردة صغيرة حمراء ذابلة، وعلى رأسه طربوشاً كالذي يستعمله المصريون، ويحمل بيده عصا غليظة من الخيزران.. كان منتصب القامة على الرغم من تقدمه في السن..!

تقدم الرجل دون ان يلتفت يمنه ويسرة، واتجه الى الأريكة التي كان يجلس عليها، فجلس على الجانب الآخر وهو يقول:

- السلام عليكم.

فرد عليه السلام، ثم رفع يده بالتحية قائلاً:

- مسَّاك الله بالخير.

فرد عليه الرجل دون ان يلتفت الى ناحيته. في هذه اللحظة ارتفع صياح وصخب، ونهض رجل من الناحية الثانية المطلة على شارع الرشيد وهو يصرخ:

- انه لم يعد.. اكثر من ساعة ولم يعد.. اعطيته ديناراً ليشتري لي علبة سيكاير فأخذ الدينار وهرب..

كان الرجل عملاقاً ضخماً . . اسود، قصير الشعر، يرتدي قميصاً ابيض . وكان مع ضخامة جسمه وكبر رأسه، سخيف الصوت، كأنه يخرج من آلة موسيقية سيئة الصنع ! ! كان بعض الرجال حوله يتألمون لحاله . . وكان بعضهم، بعيدين عنه، يضحكون . وقد كف بعض الرجال الذين كانوا يلعبون (الدومنة) او النرد عن اللعب، وراحوا يتابعون صراخه وحركات يديه :

ـ انني لا املك غيره . . صدقوني . . لقد هرب بالدينار .

ـ كان عليك ان تذهب بنفسك وتشتري السيكاير .

ـ او تنتظر قليلا حتى يمر احد الباعة المتجولين فتشتري منه .

ـ انه دينار بكامله . أأذهب الى الشرطة؟

ـ ماذا تقول لهم؟ . . انت سلمته الدينار بنفسك . كأنك أعطيته له !

كان صاحب المقهى الصيفي، يجلس قريباً من السلم وراء منضدة صغيرة، وضع عليها صينية مدورة من الالمنيوم، ووضع في الصينية قطعاً متراصة في نصف دائرة، نقوداً معدنية من الفلس والفلسين وأربعة الأفلس وعشرة الفلوس . وراح في حديث طويل جاد مع رجل يرتدي الملابس العربية الاصيلة، عباءة سوداء جيدة النسج تشف عن الملابس البيضاء التي تحتها، وكوفية يحتضنها عقال جيد . كان يبدي اهتماماً زائداً ويهز رأسه تأييداً وتعجباً !

كان السيد خالد لا يفكر بشيء مما يدور حوله . . انه يعيش مع همومه المتزايدة، مع فقره، مع الأيام التي قضاها باحثاً عن عمل . . أي عمل . . يستطيع ان يكسب من ورائه ما يكفيه وامه ! .

التفت اليه الرجل النحيف صاحب الطربوش وسأله :

ـ ماذا تشتغل؟

ـ انني ابحث عن عمل .

كان صوته ضعيفاً الى درجة ظن ان الرجل لم يسمعه ، فاراد ان يعيد الجواب . ولكن الرجل المكلف بتوزيع الشاي أقبل وهو يحمل بيده اليسرى ، وبصورة مدهشة ، عشرة أقداح ملأى إلى اعلاها بالشاي ، وقال بصوت قوي وهو يتناول قدحاً بيده اليمنى ويقدمه الى الرجل ذي الطربوش :

ـ اهلاً علي افندي .

ـ اهلاً .

وتناول القدح ، وباشارة من رأسه ، دون ان يلتفت الى السيد خالد ، قال :

ـ الولد يريد ان يشتغل .

كان العامل المكلف بتوزيع الشاي ، طويلاً ، بارز الصدر مرفوع الرأس ، تلتف العمامة الشعبية (جراوية) بقوة وتحد حول رأسه ، اقرن الحاجبين ، طويل الشارب ، حليق اللحية ، اسمر ! ذهب الرجل يوزع الشاي دون ان يتفوه بكلمة اخرى . . وارتفع صوت الاذان من جامع السيد سلطان علي ، فنهض الرجل ذو الطربوش وهو يقول :

ـ يا الله . . صلاة العشاء .

وحمل العصا الغليظة بيده ، وخرج بالطريقة التي دخل بها بعد ان القى عشرين فلساً في الصينية التي رصت فوقها النقود المعدنية

والتي يجلس وراءها صاحب المقهى. وانتبه الرجل وهو يتناول العشرتين اللتين القى بهما علي افندي ويضعهما مع نفس الفئة من النقود المتراصة، انتبه الى الرجل الذي فقد دينارة والذي كان يصرخ ويقول:

ـ سأبحث عنه في كل مكان حتى اسلمه الى الشرطة.

ولما علم حقيقة القضية، نهض من مكانه، واتجه نحو الرجل، ووضع امامه ديناراً، ثم عاد الى مكانه وراء النقود!

واصيب الرجل بارتباك شديد وحيرة، وتلفت حوله، ثم ترك المقهى دون ان يمد يده الى الدينار! وكان العامل المكلف بتوزيع الشاي قد وصل الى هناك، فحمل الدينار، وعاد به الى صاحب المقهى، ووقف يحدثه قليلاً ثم انصرف الى عمله.

لم يشأ السيد خالد ان يترك امه تنتظر، فنهض وهو يخرج الدرهم الوحيد العزيز الذي ظل يحافظ عليه اكثر من اسبوع والذي قرر اخيراً ان يودعه، لتحل محله ثلاث عشرات من الفلوس. وكان صاحب المقهى ينظر اليه وهو ينهض، وهو يتقدم نحوه، وهو يخرج الدرهم ويضعه في الصينية. ثم سأله:

ـ هل تريد ان تشتغل؟

ـ نعم (عمي).

اجابه بسرعة، دون ان يعلم ما هو الشغل، واين.. اضاف الرجل:

ـ توزع الماء، وتجمع الأقداح الفارغة.. و..

ـ ساقوم باي عمل تطلبه.

- الدوام من الساعة الرابعة عصراً الى منتصف الليل.

- انت تأمر (عمي).

اعاد اليه الدرهم وهو يقول:

- ستأخذ ثلاثة دراهم في اليوم.

كاد خالد يطير من الفرح.. فقد ظن ان ثلاثة الدراهم ثلاثمائة فلس!. ونظر الى المقهى، فبدت في نظره صغيرة صغيرة، اصغر من نشاطه وقوته وفتوته! انه يستطيع ان يدير عشراً مثلها!.. وبعد الساعة الواحدة، بعد منتصف الليل، قبض الدراهم، وعاد مسروراً وهو يسير في شوارع بغداد الآمنة الساهرة بمحلاتها، بحوانيتها، بسير الناس فيها حتى تلك الساعة المتأخرة من الليل!

ووجد امه تنتظر في الشارع العام، وقد تناوشتها الوساوس، وذهبت بها الظنون كل مذهب، ومحمد ابوعبدالمجيد، وعبدالمجيد يطمئنانها:

- لعله اشتغل.

- لعله ذهب الى السينما.

وهي ترد عليهم، وتلطم صدرها:

- من اين له النقود.. من اين له النقود.. انه يحمل درهماً واحداً لم يصرف منه شيئاً منذ اعطيته له. ونظر عبدالمجيد.. وكان حاد البصر.. فصرخ:

- هذا ابنك قد عاد.

وهتف:

- خالد.

فشهقت وهي تسرع نحوه وتصيح :

ـ خالد . . اين كنت يا خالد؟

ـ كنت اشتغل .

وغمرتها فرحة مضاعفة :

ـ انت اشتغلت يا خالد؟

ـ نعم .

ودس في يدها الدراهم الثلاثة . . فرفعت رأسها الى السماء :

ـ الحمد لله .

لم يستطع ان ينام تلك الليلة ، راح يحدث امه :

ـ ساقبض تسعين درهماً في الشهر . .

ـ تسعون درهم؟

ـ أي تسعة دنانير .

ـ تسعة دنانير . . الحمد لله الذي لا ينسى عبده . . ابداً .

ولم يدرك الا بعد يومين انها أربعة دنانير ونصف الدينار شهرياً وليست تسعة دنانير كما ظن . . ومع ذلك فانها أفضل من لا شيء .

ولكن العمل كان مرهقاً . . كان في حركة وركض متواصل من الرابعة عصراً حتى الواحدة ، او الواحدة والنصف بعد منتصف الليل! كان يوزع الماء ، ويجمع الاقداح الفارغة ، ويلبي طلبات الزبائن . . (طاولي . . ودومنة)سيكاير وحاجات أخرى وأخرى ولا سيما عندما تجري لعبة الارقام الفائزة «الدنبلة» أو «البنكو» كما يسميها الاجانب!! وكان عليه ان يشترك في كنس ارض المقهى ، ورشها بالماء عصر كل يوم . فكان يعود الى البيت محمولاً على ساقين تئنان

اعياءً وتعباً!!.

ومع ذلك، فقد استطاع ان يرى فئات كثيرة من المجتمع، الجيد من الناس والرديء، الشريف والوضيع، العامل والعاطل، الموظف والتاجر.. غيرهم وغيرهم!! وكان يشعر بالنفرة من بعضهم، وبالاطمئنان والراحة.. بل بالحب والميل الى بعضهم الآخر.! وكانت الفئة الجيدة المنتخبة من الرواد غالباً ما تأتي بعد الساعة العاشرة مساءً، وبعد هذه الساعة، كان يستطيع ان ينال بعض الراحة، فيقل الصخب، ويعم الهدوء، وترتاح المصابيح فتستسلم لمداعبة النسيم الهاب من جهة النهر. وبعد هذه الساعة ايضاً، كان يتردد على المقهى شاب اسمر، متوسط القامة، قصير الشعر، دمث الاخلاق.. يلقي بالنكتة والحكمة والكلمة الجادة بروح مرحة شفيفة متفتحة. وقد كان صاحب المقهى ينهض واقفاً ومرحباً عندما يدخل:

ـ اهلاً بالاستاذ داود.

وقد سأله الاستاذ داود يوماً، وقد رآه يقرأ في جريدة تركها احد رواد المقهى، عن تحصيله الدراسي، فاجاب:

ـ انهيت الخامس الادبي.

فسأله مستغرباً:

ـ ولم تجد لك وظيفة؟

فاجاب بانكسار:

ـ ما عندي من يوظفني.

فكتب له الاستاذ داود توصية، واستطاع ان يحصل على وظيفة..

ولم يصدق..

فقد حصل كل ذلك بسهولة وسرعة مدهشة!! ورفعت امه يدها بالدعاء للاستاذ داود:

ـ اللهم احفظه وانصره وبارك له في زوجه وبيته واولاده.

كيف يصدق؟!

أيستطيع هو.. ان يدخل الى دائرة كبيرة محترمة فيجلس على كرسي انيق وامامه منضدة كبيرة نظيفة تلمع، وعليها سجل!

في الشعبة يجلس ملاحظ.. وملاحظ الملاحظ.. او رئيس الملاحظ، او رئيس الموظفين الخمسة!

لا شك انه يحلم..

لا ركض.. ولا تعب.. ولا صخب.. ولا معاملة خشنة.. ولا عودة بعد منتصف الليل.

آه..

استمر اكثر من عشرة ايام دون ان يقوم بأي عمل.. كان ينظر الى بقية الموظفين يتحدثون ويضحكون ويعملون..

لا بد ان العمل الذي يقومون به في غاية الصعوبة!..

سمع الملاحظ يتحدث اكثر من مرة ويشكو من قلة الموظفين وكثرة العمل!..

وفي احد الايام، رأى موظفاً يقبل راكضاً وهو يقول:

- رئيس المؤسسة يفتش. . رئيس المؤسسة يفتش. هتف الملاحظ منبهاً السيد صباح الذي كان يجلس قريباً من الباب:

- افتح السجل. . وانشر الاوراق امامك.

والتفت الى سليم:

- افتح السجل وضع كتب الصادرة امامك.

- لم يأتِ اي كتاب للصادرة بعد.

ضرب الملاحظ بيده على المنضدة.

- كم مرة. . كم مرة اطلب اليك ان تؤخر عدداً من الكتب الى اليوم التالي.

- لدي عشرة كتب، ولكني صدرتها.

- ضعها امامك. . فاذا جاء رئيس المؤسسة فمر على الرقم والتاريخ بالقلم كأنك تسجلها.

وقبل ان يلقي بتوجيهاته الى كاتب الواردة. . اخرج هذا كمية من الكتب القاها امامه، وفتح السجل وراح يكتب بيد متمرنة سريعة!. ونشر السيد محمود، الملاحظ، كمية كبيرة من الأغلفة، وراح يفتحها بعناية فائقة ويكتب في دفتر صغير. . او يتظاهر بالكتابة في دفتر صغير!!

أقبل رئيس المؤسسة. . قصيراً، بديناً، ابيض، يضع نظارات سميكة على عينيه، وقطعة صغيرة لاصقة مدورة (بلاستر) على خده الايمن. فألقى نظرة سريعة ثم خرج. ولكن السكرتير، بقي واقفاً. سأل رئيس الشعبة:

- اين الموظف الجديد؟

فاشار اليه بيده.

ـ ماذا يشتغل؟

ـ انه جديد . . لا يعرف .

ـ هل كلفته بعمل؟

ـ لا . . ولكن . . لا يعرف .

فهز يده ساخراً ومؤنباً :

ـ كيف يتعلم اذا لم تكلفه بعمل؟

فتردد رئيس الملاحظين ، وسأله وكأنه يستعطفه :

ـ هل يستطيع ان يتحرى عن الكتب؟

ـ لم لا . . انه خريج الدراسة الاعدادية . .

ثم سجل شيئاً في دفتر صغير يحمله بيده ، وخرج مسرعاً ليلحق برئيس المؤسسة .

نهض رئيس الشعبة ، قصير القامة ، قصير شعر الرأس نحيف الوجه حليق اللحية والشارب ، صغير العينين . نهض واقفاً وبقي ينظر الى خالد ، ثم تقدم نحوه وسأله بصوت خفيض :

ـ هل تستطيع ان تتحرى؟

لم يدر بماذا يجيب . .

لا بد ان التحري مهمة صعبة للغاية!

ولكن السيد سليم هتف من مكانه :

ـ انا اعلمه كيف يتحرى عن الكتب الصادرة .

فاعترض السيد مدحت كاتب الواردة :

ـ سيعمل معي . . يتحرى عن الكتب الواردة .

ولم يفهم شيئاً مما يدور حوله . . ولكنه شعر بالارتياح لانه سيقوم بعمل معين .

ثم تدرج من التحري الى كاتب صادرة، الى كاتب واردة.. ثم نقل الى الذاتية ليقوم باصدار الاوامر الادارية الخاصة بالاجازات الاعتيادية والمرضية للموظفين!

في هذه المرحلة من حياته الوظيفية جازف بشراء قطعة ارض، وقام ببنائها، وغرق في لجة الديون والهموم.. في الهروب من مواجهة الدائنين!!. ولم يسدد ما عليه الا بعد ان استنزف كثيراً من جهده ووقته واعصابه وكرامته!!

وكان في منأىً عن الاحداث الكثيرة الرهيبة التي مرت بالعراق، والتي شاب لهولها الولدان!! الاحداث التي تحول النهار فيها الى ليل والليل الى ويل، وامتلأت العيون بالدموع، والقلوب بالاحزان، والبيوت بالآلام!! والتي وقف فيها الشاعر الحليم متردداً، متحيراً، متشككاً وهو يخاطب بلاده العزيزة:

بلادي هل تحررتِ؟ وهل .....؟

أحقا قد تحررت؟!!

.....

.....

★★★

ودخلت عليه مرة ثانية، وكانت تبدو عليها العجلة، وتتكلم بسرعة:

- اخي استاذ في الجامعة الامريكية.. يصل اليوم الى بغداد. قال بتردد:

- في بيروت؟

فهـزت رأسهـا مع حركة من يدها اليسرى التي تحمل منديلاً ابيض من الورق الخفيف:

ـ استاذ في الجامعة الامريكية.. في امريكا.

التقطت نفساً سريعاً ثم اضافت:

ـ امـا اخي عماد، فانه مهندس، ذهب الى المانيا للاشراف على مصانع السيارات هناك.

ـ ميكانيك سيارات؟

ـ مهندس سيارات.. ما رأيك.. انه يريد ان يتزوج فتاة المانية.

ـ المهندس عماد؟

ـ لا.. الاستاذ زهير..

ثم ضحكت، ومسحت فمها بالمنديل الورق واضافت:

ـ الامريكان يحبون الالمانيات.

ثم رفعت يدها كأنها تحييه:

انا ذاهبة الى المطار.. (او.. كي)؟

وخرجت قبل ان تسمع الجواب.. ولم تكن بحاجة لأن تسمع الجواب! فقد ادارت رأسه وتركته يتصور مركز عائلتها..!

اخـوهـا استـاذ في الجامعة الامريكية.. في امريكا! والآخر مهنـدس يشـرف على مصانع السيارات.. في المانيا. ولا بد ان يكون لها اخوة واخوات كلهم على هذا المستوى او اكثر!!

فماذا يكون ابوها؟!.

رأى نفسه ينشغل بها..

لم تدخل الى قلبه.. ولكنها دخلت الى عقله.

امرأة بهذه القابلية والحركة والذكاء والمركز. . لا بد ان تكون عظيمة. .

وذكرها لأمه. .

فأصغت اليه ساعة. . ثم قالت:

ـ العاقل من مدَّدَ على طول غطائه!

فتبسم كالساخر والمحتج وقال:

ـ لا بد ان نخرج الى الدنيا.

كانت التقارير المتلاحقة ترفع عنها:

تهمل واجباتها. .

تأتي متأخرة. .

تقضي اوقات الدوام في زيارة الموظفات. . والاكل وشرب الشاي و. . وكان يحاول ان يغض الطرف. ولكن الموظف المسؤول عن الدوام قال:

ـ لا بد من انزال عقوبة صارمة بحقها.

وفكر في الأمر. .

ان كثيراً من الموظفين قد عوقبوا على اقل من هذه المخالفات فاذا سكت. . فقد يفتح على نفسه باباً للتقولات!! لذلك تمطى في كرسيه، واظهر شيئاً من الصرامة والجدية. . واصطنع الغضب. . وضرب على المنضدة بقوة وهو يقول:

ـ دعها تواجهني. .

وحاول ان يهيء نفسه وجلسته، وان يعد كلاماً جيداً قوياً يواجهها به.

obeikandl.com

سيقول لها . .

وفتح الباب بقوة . .

ودخلت كالعاصفة . .

ـ ارأيت كيف يعامل الموظفون في هذه المؤسسة . .

ان الموظف المسؤول عن الدوام هذا . . لا يعرف واجبه . .

ان الموظفين قد ارتاحوا عندما صرتَ مديراً للادارة . . ولكن هذا . .

وراحت تتكلم بقوة وسرعة . . وتغير وضع المدير وراح يعتذر ويعتذر وهي ترد وتهدد الموظف الصغير الذي وقف مندهشاً متلعثماً متهماً لا يدري كيف يتخلص من ورطته!!

ثم تركت الغرفة . .

وتركت عطرها وشخصيتها تعمل في رأس المدير!!

لا يستطيع ان يقول أنه احبها . . ولكنه وجد نفسه . . بلا تفكير . . وبلا مقدمات . . يقول لها عندما جاءت تطلب السماح لها بالخروج من المؤسسة لفترة قصيرة :

ـ اريد ان ارسل امي لزيارتكم .

نظرت اليه نظرة فاترة محيرة لم يدر كيف يفسرها ، ثم ضحكت وقالت بصوت خفيض :

ـ اهلاً وسهلاً .

فاضطرب قليلاً . وأح أح . . وقال :

ـ فانت توافقين؟

ـ على ماذا؟

ـ على زيارتكم . .

فاستدارت بثوبها البني مع ضحكة مقطوعة، مع نصف التفاتة :

ـ اهلاً وسهلاً .

فنهض واقفاً وهو يضيف :

ـ اليوم . . بعد العصر .

ولم تغير من وقفتها، بل راحت تنظر اليه وكأنها تحاول ان تزن مقدار الاستفادة منه :

ـ اهلاً وسهلاً . .

ثم خرجت . .

جلس بعد ذلك يفكر . .

هل كان جاداً فيما قال؟

هل كان مصمماً حقاً على الزواج منها؟

ولم ينتبه إلى دخول فتاة (بسيطة) فقيرة، بثوب طويل عفيف فقير بالألوان . .

بأكمام طويلة تصل الى الرسغين . .

شعر مهمل ووجه صغير نحيف اسمر . .

بلا اصباغ . . بلا رتوش!!

انتظرت الفتاة قبل ان تقول :

ـ استاذ . . اين اباشر؟

رفع رأسه اليها وردد :

ـ اين تباشرين؟

ـ نعم استاذ . . انا الموظفة الجديدة .

ـ انتِ . .

ـ حميدة .

فضحك، ورفع يده الى جبهته يفركها :

ـ تذكرت . . اي مكان يناسبكِ؟

ـ انت تعلم يا استاذ .

تناول الاوراق التي في يدها . . وقلبها دون ان ينظر الى صورتها وقال :

ـ اذهبي الى الاوراق .

ـ ما هي الاوراق يا استاذ؟

ضحك مرة ثانية دون ان يرفع اليها رأسه وقال :

ـ اذهبي الى الذاتية . . ستقومين باصدار الاوامرالادارية بالاجازات الاعتيادية والمرضية .

ووقع بذلك وسلمها الاوراق . .

فاخذت الاوراق وهي تقول :

ـ شكراً .

وقبل ان تخرج التفتت وقالت :

ـ هل انت مريض يا استاذ؟

ـ انا؟

ـ معي حبوب لوجع الراس .

وارادت ان تفتح المحفظة الصغيرة التي تحملها . . فاشار اليها، وكأنه يدفعها بظهر كفه، وهو يكرر عبارته :

ـ اذهبي الى الذاتية .

ثم ارسل امه . . وكان قد اشترى لها ملابس جيدة، وعباءة

جديدة، وفوطة ممتازة . .

وعادت امه فقالت:

ـ لو رأيت غيرها.

ـ لماذا . . ماذا بها؟

ـ لا ادري . . ولكن.

ـ هل هي قبيحة؟

لا . ولكن . .

ـ اخبريني يا امي . . اخبريني . .

ـ فتبسمت امه وقالت:

ـ اذا كانت تعجبك . .

ـ انها تعجبني.

لم تسرع دقات قلبه . . لم ينفتح صدره . . لم . .

لم يرد ان يعرف رأي امه الصريح!!

بل لم يترك لها المجال لتفصح عما في نفسها!.

ثم ذهب مع صديقه محمود، مدير الحسابات، لزيارة اهلها في المنصور. في شارع داخلي عريض خالٍ من الاشجار، مقابل بيت الحاج كمال الدين العطار مدرس اللغة العربية.

في الشارع كانت تقف سيارة سوداء قديمة انشغل اربعة صبية مع ابيهم في غسلها بالماء والصابون، وامرأة بدينة كانت تدفع طفلاً في عربة، وعلى مسافة ليست بعيدة كان ثلاثة اطفال يلعبون كرة القدم. ومن جهة الاطفال اقبل رجل محني الظهر، في الستين من عمره، يحمل كيساً من (النايلون) انتفخ بالتفاح. استوقفه السيد

محمود وسأله، وهو يشير بيده الى باب عريض ابيض لا يزيد ارتفاعه عن الارض عن متر واحد:

ـ هل هذا بيت الآنسة عايدة؟

وقف الرجل يتفحص الاثنين.. كان يرتدي قميصاً اسمر وسروالاً قديماً حنطي اللون، وكان حليق اللحية، قصير الشارب، تتزاحم على الجانب الايمن منه شعرات سوداء.. اما بقية الشارب فانه ابيض.

اعاد السيد محمود السؤال:

ـ هل هذا بيت الآنسة عايدة؟ لها اخ اسمه زهير وآخر اسمه عماد.

تحركت شفتا الرجل وهو يهز رأسه بكلام لم يتجاوز صوته شفتيه. ثم دفع الباب الذي اشار اليه السيد محمود ودخل. وبعد لحظات، اقبلت امرأة شقراء طويلة شطبة، بصدر عريض وشعر احمر يبدو كالمنفوش، بعينين زرقاوين ووجه احمر وقامة قوية متينة مسيطرة!

ـ اهلاً.. اهلاً.. تفضلا.

ومدت يدها تصافحهما..

كانت ترتدي ثوباً طويلاً شامياً باكمام عريضة، مطرز بخيوط ذهبية على لون اسود مزرق.. وكانت الأسورة الذهبية او الذهب، كما تبدو، التي تطوق معصميها، توسوس عندما تتحرك يدها!

كانت الحديقة تحتل اكثر من نصف الارض.. تحتل الجنب الايمن منها والواجهة الامامية. وقد تراجع البيت الى مساحة صغيرة محتلاً الجهة الخلفية اليسرى! في الحديقة توجد ارجوحة قديمة

مهملة، علاها الصدأ وبدت مائلة الى الخلف كانها توشك على السقوط.

تقدمت السيدة، يتبعها السيد محمود فالسيد خالد. كان السيد خالد متزيناً متأنقاً متعطراً. خجلاً. متردداً. مرق من جانبه صبي تجاوز العاشرة من عمره، مرَّ راكضاً، ثم وقف واستدار ينظر الى الضيفين، ثم صرخ (كالمخروع):

- بابا..

وانطلق الى الداخل..

التفتت السيدة، وهي تبتسم، وقالت:

- انه اياد.. آخر العنقود.

انحنى السيد محمود فقطف وردة حمراء وضعها على صدره ثم تابع سيره خلف السيدة.. وقبل ان يجلسا، وقف يقدم صديقه بحركة مسرحية بارعة:

- الاستاذ خالد عبدالمجيد الصالح.. مدير الادارة والذاتية في مؤسستنا.

طأطأ السيد خالد رأسه، وغض بصره، وشعر بالامتنان الكبير للسيد محمود الذي لم يذكر لقبه الصحيح.

أشرق وجه الوالدة، ورددت متسائلة:

- الصالح؟.. لقب العائلة؟.

واكد لها بنفس الحركة المسرحية البارعة:

- نعم كان ابوه رحمه الله من كبار المقاولين في بغداد، اشرف على بناء عمارة الدفتردار.

ورددت ايضاً:

ـ عمارة الدفتردار. . في الباب الشرقي؟

ـ لا . . عمارة الدفتردار في بداية شارع النهر، تطل على دجلة. بل تطل على بغداد بكاملها!

واقبلت عايدة، فصافحت السيد محمود:

ـ اهلاً وسهلاً بالاستاذ محمود.

ثم التفتت الى امها قبل ان تترك يده:

ـ مدير الحسابات في المؤسسة.

ثم مدت يدها فصافحته دون ان تقدمه الى امها.

كانت ترتدي ثوباً اصفر، حجب كل ما كانت تريد ان تظهره من جمال! . في اذنيها وضعت قرطين يلمعان على ضوء الثريا المتدلية بمصابيحها الخمسة من سقف الغرفة، وقد حلت صدرها بقلادة تشبه حباتها حبات المسبحة الصفراء. . ثم انسحبت بسرعة. . تاركة المجال لامها. . وهي تقول:

ـ ساقدم لكم شيئاً.

لكنها عادت بسرعة وهي تحمل علبة حلويات (بقلاوة) كانت في الثلاجة. . فضحك السيد محمود وهو يملأ فمه، وكان بديناً اسمر، قصير شعر الرأس، حليق اللحية والشارب، يرتدي بدلة رمادية مخططة، ورباط عنق ازرق، ويضع الوردة الصغيرة الحمراء التي كان قد قطفها من الحديقة على صدره. قال وهو يضحك:

ـ ارجوكِ. . ارجوكِ. . اخرجيها من الثلاجة قبل ان تجمد.

فضحكت الام، وضحكت عايدة ثم انسحبت بعد ان تناول السيد خالد قطعة صغيرة وهو يقول:

ـ هذه تكفي .

ـ ثم سألت الام :

ـ كم يبلغ راتب الاستاذ؟

واشارت الى السيد خالد .

فاسرع السيد محمود :

ـ مائة دينار . . الراتب الاسمي فقط .

فهزت رأسها :

ـ ممتاز .

ثم سألت :

ـ هل تملك سيارة؟

واسرع السيد محمود يجيب ايضاً :

ـ قبل ان نأتي الى هنا، مررنا على معرض للسيارات، فلم نجد السيارة المناسبة . انه يريد مرسيدس او شوفر . . وقد رفض ان يشتري سيارة فكسل ممتازة .

فقالت مصححة :

ـ فوكس هول .

ـ نعم؟

ـ فوكس هول .

فنهض من مقعده . . واشار اليها بيده .

ـ كيف عرفتِ . . هل كنت هناك؟

وتركها تغرق في الضحك بينما التفت الى السيد خالد :

ـ هل رأيتها في المعرض؟

obeikandl.com

كان السيد خالد، جالساً عاقلاً وديعاً لا يتحرك ولا ينبس ببنت شفة! وكانت السيدة تنظر إليه بين آونة وأخرى. تتفحصه جيداً.. كان كلما شعر بنظراتها تتوجه اليه انكمش وطأطأ فلم يرفع رأسه الا بعد ان تحول نظراتها عنه! وكان يتعجب مع نفسه، كيف يستطيع السيد محمود ان يتكلم بهذه الطلاقة واللباقة والقابلية! وكيف يلقي بالنكتة والكذبة والاشارة والحركة بلا تكلف ولا تردد ولا مبالاة!!

اقبلت عائدة تحمل اربعة اكؤس من عصير الرمان في صينية معدنية بيضاء مستطيلة لامعة.. وكانت قد حلت يدها اليسرى بساعة صغيرة. فنهض السيد محمود، ومد يده قبل ان تصل وهو يقول:

ـ اسقنيه.. بابي انت وجدي.. وبعمي وبخالي.. ثم بنتي.

وتناول كأساً رفعه الى فمه ثم رشف منه وقال وهو يتلمظ:

ـ منذ الف سنة وانا لم اشرب مثل هذا العصير.

تناولت الام كأس العصير، ورفعته قليلاً، كأنها تستعد للكلام.. ثم قالت:

ـ مكانة الرجل في زماننا تتحدد بامور ظاهرة..

قطعها السيد محمود:

ـ نعم..

لكنها مضت تقول:

ـ مكانة الرجل.. في البيت الذي يسكنه، والسيارة التي يملكها، والملابس التي يرتديها.. ثم.. قاطعها السيد محمود:

ـ ثم.. سليني انا عن ثم..

ـ في الرصيد الذي يدخره في البنك.

فتح محمود يديه بعد ان وضع القدح الفارغ امامه:

ـ لديه ثلاثة آلاف دينار في البنك.. والبيت الذي يسكنه لا يضاهيه اكبر قصر في هذه المنطقة.. اما ملابسه.. انظري..

وامسك بطرف (الجاكيت):

ـ انها بضاعة اجنبية!

في الكلمة الأخيرة لم يكذب السيد محمود.. انها بضاعة اجنبية.. ولكنها مستعملة!.. اشتراها من تحت التكية بستة دنانير من محلات (دوماد اند اوبيد) كما يسميها السيد عبداللطيف البصري دون ان ينطقها باللغة العربية.. محلات ضمد وعبيد!!

وسيطر محمود بحديثه واشاراته ودعاباته على الام، فسألته:

ـ هل انت متزوج؟

اجاب بسرعة:

ـ هل لديك بنت اخرى؟

فضحكت.. وقالت:

ـ الكبيرة متزوجة زعيم شرطة.. والثانية متزوجة من تاجر كبير يستطيع ان يشتري بغداد بكاملها.

صفق محمود بيده، ونهض واقفاً وهو يصيح:

ـ عرفته. عرفته.. انه هارون الرشيد.

فعمت موجة من الضحك، جعلت الاخ الصغير اياد، يطل كالخائف، بوجهه النحيف الطويل، وانفه المائل الى الشمال، وشعره الاصفر البسيط.. ثم ينسحب بسرعة!

وطرق الجميع شتىٰ المواضيع، ليس من بينها موضوع الزواج، وعندما خرجا شدت الام على يد السيد محمود وقالت:

ـ لا بد ان تزورنا مرة ثانية.

فاجاب:

ـ طبعا.. مع الاستاذ مدير الادارة والذاتية.

وعندما احتواهما الطريق، راح خالد يعاتب محموداً على تسرعه ومبالغاته. ولم يكترث محمود لعتابه، وانما قال:

ـ كذبوا علينا فكذبنا عليهم.. والبادي اظلم.

ولم يفهم منه شيئاً..

فسكت على مضض!

واستطاعت امه ان تقرأ آثار الهزيمة في عينيه.. ولكنها لم تفصح عما في نفسها. ثم حدث امه بما قال محمود فقالت:

ـ لا.. لا بد ان يعرفوا عنك كل شيء.. الراتب لا يتجاوز الخمسين ديناراً، وليس لديك رصيد في البنك، ولا تستطيع ان تشتري سيارة في الوقت الحاضر!!

كانت عايدة قد تحرت عنه اكثر مما يظن.. فعلمت ان راتبه خمسون ديناراً، وانه لا يملك رصيداً في البنك ولا في التوفير.. وانه لا يستطيع ان يشتري سيارة ولا..!! ولكنها كتمت كل ذلك.

ثم تزوجها..

وقضى الشهر الاول الذي تطلق عليه الاقوام الاخرى شهر العسل، بعد ان استلف مائة وخمسين ديناراً، وسافر الى الشام،

والى لبنـان . . وتغير عليه الهـواء والـطعـام، واشتاق الى بيته وامه ودائرته . . انه يسافر لاول مرة . !

اول مرة يترك فيها بلده الحبيب .

ثم عاد . .

. . . . . .

واقبل المهنئون . .

كان يود ان يستقبلهم وحده . .

ولكنهـا خرجت، بكـل زينتها . . بل بشكل لم يرها مثله منذ تزوجها!! وراح يصافح الايدي التي تمتد اليها أولاً ثم تتحول إليه . .

كان يحاول ان يبدو متطوراً عصرياً متفتحاً كما يريد عصره، او كماتريد هذه الطبقة من الناس!!

واقبل حمدي . . رجل يجيد الكلام والتصرف في كل موقف . ومعـه جودي . . الموظف الطويل الأسمر الذي خان أقرب الناس إليه . . قريبه!!

وامتدت يد جودي اليه بعد ان صافحها، وقال وهو يضحك :

ـ هنيئاً بالعسل يا مدير العسل!

لم يرها بمثل هذا الانطلاق والضحك وطرح الاحتشام الا في بقين مرة وفي بلودان مرة ثانية . اما في بيروت فقد ارادت ان تنطلق على الروشة، فرأت مجموعة من الناس يقفون، يطلون على الخليج الصغير الذي ترتفع من وسطه صخرة الموت . كان الناس يشيرون بايديهم الى الخليج . .

ونظرت . .

ونظر هو أيضاً . .

فرأى فتاة ترتدي ثوباً ابيض ، قد القت نفسها من شاهق ورقدت جثة هامدة على الخليج ! . وقد تركت حقيبتها ، وفيها رسالة تذكر فيها تعاستها وشقاءها واضطرارها الى الانتحار!!

كانت تضحك لكل نكتة يلقيها جودي . . او سمير ملاحظ الاوراق في المؤسسة . وكان ينظر الى عيني جودي التي تلهث وراءها ، والدم يغلي في عروقه . .

ماذا يفعل؟

أيطرده؟

أيصرخ به . . ؟

لا . . عليه ان يرضى ويداري وينافق ويدوس كرامته وغيرته . . و!! وانصرفوا . .

واراد ان يلقي عليها درساً اعد كلماته اعداداً جيداً . . ولكنها فاجأته بقولها :

ـ لم ار في حياتي رجلاً تافهاً كهذا .

ـ مَن؟

ـ جودي . .

اراد . . بل تمنى لو استطاع ان يغور الى اعماقها ليتبين موضع الصدق فيما تقول :

ـ ماذا يظن نفسه؟ . . كلنا نعلم انه يشتري الملابس المستعملة ثم يرسلها الى الغسل والتشحيم ثم يلبسها!

ـ الغسيل والتشحيم؟!

فضحكت، وهي تزيح الورقة عن قطعة من الحلوى وتضعها في فمها:

- نحن الموظفات، نعلم كل شيء عنكم ايها الرجال.. كل شيء.. انه يشتري الملابس من الباب الشرقي..

واتت بحركة من يدها تشير الى محلات بيع الملابس المستعملة ثم مضت:

- ثم يرسلها للغسل والكي.. ثم يلبسها على انها جديدة ومستوردة!

ثم ضحكت..

وضحك معها بعد ان بلع ريقه..

واحتفظ لنفسه بالدرس الذي اراد القاءه عليها!!

obeikandl.com

٨ ـ النَّدَم ...

obeikandl.com

obeikandl.com

ـ استاذ . .

استاذ . .

استاذ خالد . .

رفع رأسه كالذي ينتبه من حلم كريه كريب مزعج .

ـ هل انت مريض يا استاذ؟

اين رأى هذه الفتاة؟ . . كيف دخلت دون ان يشعر بها؟ شعر اسود لامع ، وثوب ابيض ناصع ، وتنورة بلون البن .

ـ هل انت مريض يا استاذ؟

وجه يحمل الكثير . . الكثير من معاني الطهر ، والبراءة والصفاء بعينين لوزيتين تظللهما اهداب طويلة سوداء . بلا (رتوش) بلا مساحيق ، بلا (مكياج) .

انا الموظفة الجديدة التي . .

اشار بيده وهو يبتسم :

ـ تذكرت . . ولكن . .

واشار بيده الى ملابسها .

ـ رئيس الشعبة يا استاذ منعني . . قال يجب ان ترتدي كما يرتدي بقية البنات .

ـ ماذا تريدين؟

ـ يومين فقط .

ـ تريدين يومين؟!

- اجازة اعتيادية.

- لماذا؟

- اريد ان اكون الى جانب امي في البيت.

انها مريضة.

- هل.. هل مرضها شديد؟

ضربت بيدها على صدرها:

- اعوذ بالله..

- انت تقولين انها مريضة.

- حرارتها مرتفعة يا استاذ.

- لا حاجة الى الاجازة اذن.

- لماذا يا استاذ.. انها امي.

- ايجب ان تكوني الى جانبها؟

- نعم يا استاذ.

تناول الورقة من يدها وكتب عليها: موافق.

- اشكرك..

ستدعو لك امي بالشفاء.

- لست مريضاً.

- فانت مهموم إذن..

ما الذي أهمك يا أستاذ؟

كانت تتحدث على سجيتها.. بلا تكلف، بلا أقنعة بلا زيف!

ما الذي أعماه عن هذا الطهر.. هذا الصدق.. هذه.. هذه.. هذه الفتاة؟!

غض بصره، وسأل:

obeikandl.com

ـ انت حليمة . . ؟

ـ حميدة يا استاذ . . اسمي حميدة .

ـ نعم تذكرت . . انت حميدة .

ـ امي تناديني حمدة .

رفع يده الى جبهته كانه تذكر شيئاً :

ـ اظن انني قرأت قصة بهذا العنوان : حمدة . قرأتها في مجلة . . في جريدة . .

ـ انا قرأتها ايضاً يا استاذ . . كتبتها طالبة كانت معي في المدرسة اسمها ناهدة .

فتبسم مرتاحاً ، وخفض رأسه ينظر في الأوراق التي امامه . لقد كان اعمى عن كل ما يدور حوله ! . . كان يريد ان يقفز الى مستوى اولئك الناس ، فلما خالطهم ، علم بعد فوات الأوان انه باع أغلى بأدنى ! !

عادت الفتاة تقول :

ـ أمي تقول : اذا لم تقطع الهم قطعك .

سألها دون ان يرفع رأسه :

ـ كيف يقطع الهم ؟

ـ بقطع أسبابه .

ـ فاذا كانت أسبابه راسخة ؟

ضربت على صدرها مرة ثانية ، وهتفت متوجعة :

ـ ساعدك الله يا استاذ .

فضحك وهو يرفع رأسه وقال :

- انما كنت اسأل.

لا.. لم يكن يسأل.. بل كان غارقاً في الهموم الى اذنيه بل فوق اذنيه! يوماً بعد يوم اخذ يكتشف انه تزوج التعاسة والقباحة والوقاحة والشقاء!!

إنها نسخة من أمها التي جعلت زوجها ظلاً بلا جسم!! الحكمة الذهبية التي تعلمتها من أمها.. أن تتزوج الرجل الغني الضعيف الذي تستطيع أن تحكمه.. أن تقوده.. ان تجره من اذنيه الى حيث تريد!! وقد وجد نفسه يلين في يدها.. وتنال امه نصيبها من السب والشتم والاهانة!.

انها تعاملها كخادم!

لم تقل له يوماً امك.. كانت تقول: هذه!!

ولم تقل لولدها: جدتك.. ولم تعلمه كلمة: جدة!!

كان كلما أراد أن يبحث الامر معها ثارت في وجهه، وصرخت ثم تترك البيت والطفل وتذهب الى امها!

وفي غيابها.. كان يتمتع بالراحة التامة.. والهدوء.. والحنان الوفير من أمه!

كان يحاول جاهداً أن يصبر..

ان يدعها ترضخ من تلقاء نفسها وتعود..

ولكن الامر كان ينتهي على عكس ما يريد!

كان هو الذي يرضخ!

يذهب اليها.. ويعتذر..

وتثور امها في وجهه . . ويعتذر . .
ويتحمل كلاماً كثيراً مهيناً . . ويعتذر.
ويعتذر . .
ويعتذر . .
ثم يعود بها معززة مكرمة . . منتصرة!!
ويعود مكسوراً مغلوباً . . مسلوب الارادة!!

صار ينـظر إلى ولـده الذي لم يبلغ السنة والنصف من العمر
ويتوقع له مصيراً مثل مصير خاله الصغير . .
النحيف . .
الضعيف . .
المهزوز!!
وصار يتوقع لنفسه مصيراً مثل مصير أبيها!!
. . . . . .
. . . . . .

obeikandl.com

obeikandl.com

٩ـ الفَخ ...

obeikandl.com

ماذا سيكون مصير أمه اذا لم يخرج من المصعد؟!

ماذا سيكون مصيرها اذا مات؟

ستلقي بها الى الشارع.

انه اخطأ عندما سجل البيت باسمها..

يا للأحمق..

لو سجله باسم أمه لكان افضل.

حياته كلها أخطاء.

من أجل امي يا رب!!

اذا اغرقتني ذنوبي.. واثقلتني إلى القعر.. فاسباب رحمتك لا تتخلى عني.. يا ر ب.

انت ترحم الكافر والفاجر والجاحد والفاسق..

يا رب العالمين..

من اجل امي يا رب..

من اجل امي التي تعيش حياة بئيسة تعيسه حبيسة في بيت الظلم!!

من اجل امي يا رب..

يا رب.. يا رب..

.....

.....

كيف سجل البيت باسمها؟

obeikandl.com

عندما ذهب الى اهلها مع صديقه محمود، ليتكلم في المهر و(ترتيبات) الزواج، استقبلتهما امها كالعادة، وكانت معها جارتها التي تقل عنها في عدد الحلي التي تتزين بها، وكانت اصغر منها سناً.. وقد بدت الجارة رقيقة دمثة مهذبة، يتضرج وجهها حياءً! كانت عيون الغزال تسترق النظر الى السيد محمود الذي راح يتحدث على سليقته بكل ما يخطر على باله. وكانت الام قد انسحبت الى المطبخ لتقدم شيئاً..

قالت الصديقة بعد قليل من الصمت:

ـ حدثتني مروج عن الاستاذ محمود خطيب عايدة.. فقاطعها محمود نافضاً يديه:

ـ الاستاذ خالد عبدالمجيد الصالح مدير الادارة والذاتية في مؤسستنا، خطيب الاستاذة عايدة..

اما انا.....

واشار الى صدره:

ـ فلم افكر بالزواج بعد.

ـ لماذا؟

ـ يا استاذتي العزيزة.

ـ أحلام.

ـ نعم؟

ـ اسمي احلام.

ـ يا استاذتي احلام.. يا اميرة الاحلام.

فضحكت بسرور وقد تضرجت خدودها بحمرة ملتهبة . .

ـ انا لا املك بيتاً ولا سيارة ولا رصيداً في البنك ولا في صندوق التوفير.

انا اصرف راتبي من اول الشهر. . ثم ابقى استدين واستدين الى نهايته.

فاي امرأة ترضى بان يكون زوجها صفر اليدين. . لا ماء ولا شجر؟!

ـ ان المرأة التي لا ترضى بالرجل لانه رجل ليست امرأة!

نهض السيد محمود وهو يرفع يديه اعجاباً:

ـ الله . . الله . . الله . . هذه البلاغة . .

فزادت حمرة خديها التهاباً، وقالت وهي تغض الطرف:

ـ هل تقرأ كتب الرافعي؟

ـ هل تقرئينها؟

ـ نعم.

ـ لا.

ـ فانت تقرأ الادب العالمي.

ـ انا استمع الى حكايات امي . . (الحجية) ماهية، عن حسين النمنم وقوج حصان وقمر الزمان والملكة بدور. . و. .

ـ وماذا أيضاً؟

ـ أنا أسمع كثيراً، ولكني لا أقرأ إلا قليلاً . . في المساء، وبعد الساعة العاشرة، نجتمع في مقهى صغير، في الاعظمية، قرب الجسر. الاديب والفنان والشاعر وقارىء المقام . . . وليد

الاعـظمي، وشعيب ابـراهيم، وعبـدالكـريم العـاني..و.. اما وليد.. فانـه خزانـة العلم والفقـه والسيرة والأدب والشعر والقصة والنكتة واللمحة.. انه..

- انا رأيت وليد مرة.. عندما كنت صغيرة، كان أبي يأخذني معه الى الاحتفـالات التي كانت تقام بمناسبات المولد والهجرة وبدر وليلة القدر.. سمعته يلقي قصيدته الرائعة.. إنا بغير محمد لا نقتدي.

- في مولد الذكرى وذكرى المولد.

- أهذا مطلع القصيدة؟

- انه الشطر الثاني من البيت الأول.

إذا أردت أن تستمتعي بشعـر وليد، فلا تقـرئيه في ديوانه.. اسمعيه من فمـه.. من روحه.. من مشاعره انه يصب روحه في القصيدة، فيبعث فيها الحياة!

ثم قطع حديثه فجأة، وتلفت يمنة ويسرة، وصاح باعلى صوته:

- أين الاستاذة عايدة؟

فاقبلت امها تحمل أكؤس العصير في صينية من البلور وهي تقول:

- جارتنـا الحاجة امونة زوجة الحاج حميد السامرائي سائق القطار مريضة.. ذهبت لزيارتها.. ستعود حالاً.

نهض السيد محمود، وسار نحوها بسرعة مادأً يديه!

- لا يا عمتي العزيزة.. لا.. نحن نخدمك.

كيف يستـطيع السيد محمـود أن يتصـرف بهذه السرعة وهذه اللباقة! كان خالد يشعر بالانحسار والانكسار والهزيمة، كان محمود

فارس الحلبة بلا منازع! . . كان يلقي بالنكتة والحكمة وبيت الشعر والمثل والقصة القديمة مهما كانت فقيرة وساذجة، ولا يتردد في القاء الكلمة القبيحة اذا جاء دورها! كل ذلك وخالد يبتسم ويحاول ان يداري ما به بالصمت. . انه الدواء الناجح في مثل هذه الحال!!

نهضت احلام تجمع الاقداح الفارغة. . كانت ترتدي ثوباً اخضر. . يزيد وجهها الازهر المدور اشراقاً وجمالاً. . تصل اكمامه الى الرسغين، طويلاً. . الى الكعبين. حملت الصينية وذهبت بها نحو المطبخ، فتبعتها ام عايدة وهي تقول:

ـ عن اذنكم.

وبعد قليل التفت محمود وقال هامساً:

ـ ذهبتا تخططان.

ـ ماذا تخططان؟

ـ تتقاسمان الغنيمة.

هز خالد رأسه:

ـ لم أفهم.

ـ انا وانت صيد ثمين وقع في ايديهما، فذهبتا تتفقان على قسمتنا. . انت لبنت هذه وانا لبنت احلام!

نظر اليه خالد نظرة محيرة جعلت محموداً يصرخ:

ـ مالك؟

ـ اتظن ان احلاماً من السن بحيث تنجب بنتاً تتهالك على. . .

قاطعه محمود قبل ان يتم عبارته:

ـ انها اكبر مني.

- بسنة او سنتين . .

- اتعني انها . .

- ليست متزوجة .

- ماذا تخفي وراء هذا السكوت ايضاً . . وانا الذي اقول انني استطيع ان أقرأ المرأة من رأسها الى قدمها من نظرة واحدة!!

امتلأ السيد خالد سروراً وغروراً، ولكنه ظل ينظر الى محمود نظرة الحكيم الحاذق الذي يدرك الاسرار قبل اذاعة الاخبار!

ولما عادت المرأتان، نهض السيد محمود واقفاً وهو يقول:

- انها مؤامرة . . اخبراني بكل ما دبرتما .

فضحكتا بسرور، وقالت ام عايدة:

- نريد ان نزوجك .

التفت الى السيد خالد:

- انظر . . الم اقل لك . . انها مؤامرة . . !

ثم حوَّل نظره اليهما:

- انا جئت اخطب يد ابنتكم الاستاذة النبيلة الجميلة عايدة، لأخي وصديقي واستاذي الفاضل خالد عبدالمجيد الصالح .

- تخطب لصديقك وتخطب لنفسك .

- بل قولي: أخطب لصديقي وتخطبين لي .

- نعم

- فانتِ تريدين ان تزوجيني بنت الاميرة احلام .

- هِـ ء!!

ندت من المرأتين صرخة احتجاج .

ـ اذن . . من المرأة الغبية التي ترضىٰ ان تتزوج رجلاً لا مال ولا جمال؟!! .

نظرة سريعة محيرة تبادلت المرأتان، ثم ساد سكون لفترة ليست وجيزة، كان خلالها السيد محمود ينقر فيها باناملة على الطاولة التي أمامه .

ثم تكلمت ام عايدة قاطعة حبل الصمت:

ـ بل هي ذكية وغنية وجميلة .

ـ وتقبل بي؟

ـ توفي عنها زوجها وخلف لها . .

ـ مال قارون؟

ـ تقريباً .

ـ لا أريدها .

ـ لماذا؟

ـ لا أريد ان اتزوج المرأة لمالها . . اريد ان اتزوجها لاخلاقها . . لسيرتها العطرة، لعفتها، لمنبتها الكريم . . واريد ان تقبل بي كما أنا . . محمود ابن (الحجية) ماهية يسكن الاعظمية، قرب جامع بشر الحافي . .

دعينا من هذا الآن . .

ارجوكِ . .

نريد ان نحدد المهر.

اين ابوها؟

تحركت ام عايدة بسرعة، واشارت بيدها:

- هذه عايدة قد اقبلت.

دخلت عائدة فقالت:

- مساء الخير..

ثم مضت تتكلم بسرعة:

- كنت عند جارتنا السيدة زينب.. انها رائعة رائعة.. انها تقرأ الفنجان وكأنها ترى كل شيء امامها رأي العين.. انها...

ومضت تتحدث بسرعة واعجاب كيف انها.. وانها.. وانها....

فنهض السيد محمود وقاطعها:

- انا اقرأ الفنجان والماعون والاقداح والصحون.. بل استطيع ان اقرأ على كفك ما في قلبك...

انك ستتزوجين الاستاذ خالد، وستعيشين حياة سعيدة رغيدة تتجاوز الف عام بالتمام والكمال.

كانت ترتدي ثوباً كالذي ترتديه المذيعة في التلفزيون في اخبار الساعة الثامنة.. وكانت تحمل بيدها منديلاً من الورق الاصفر. كانت تبدو نشطة مسرورة متفائلة!

جلست الى جانب الضيفة، ووضعت رجلاً على رجل!

عاد السيد محمود يقول:

- كنا نريد ان نحدد المهر.

اعتدلت الام.. وقالت، وكأنها تتم حديثاً بدأته:

- انتم تعلمون ان الاسعار قد ارتفعت.. هذه المجموعة من الاثاث كلفتنا الف دينار، وهي كما ترون ليست كما ينبغي! ان مبلغ المهر

يجب ان يسد الحاجة ويملأ عيون الناس.

تبسم السيد خالد وقال:

ـ اطلبي يا (عمة).. كما تشائين.

اشارت معترضة:

ـ انا لا احب كلمة (عمة) هذه.. نادني باسمي: مروج

ـ كما تشائين.

وبادر محمود يقول:

ـ كما تشائين يا عمتنا العزيزة.

فضحكت احلام وقالت:

ـ دعها مع خطيب ابنتها.

مضت ام عايدة تقول:

ـ اتفق اغلب الناس على ان يطلبوا المهر المقدم اقل من المهر المؤخر.

ـ هذا صحيح.

ـ انا اطلب العكس.

بسط خالد يده:

ـ انك لم تطلبي بعد!

ـ انا اطلب.. كما زوجنا بنتي قبلها.. خمسة آلاف مقدماً وثلاثة آلاف مؤجلاً.

هتف محمود كالمجنون:

ـ كم؟!!

ـ ماذا؟...

انا قلت بوضوح: خمسة آلاف وثلاثة آلاف.

obeikandl.com

- ولكنه ليس زعيماً في الشرطة ولا هارون الرشيد!

- انه يملك بيتاً وله ثلاثة آلاف دينار في البنك ويريد ان يشتري سيارة!!

- هل يبيع بيته؟

- لا . . انا لم اقل هذا.

- فمن اين يأتي بالآلاف الخمسة؟

- يستطيع ان يؤجل المسألة الى ان يتوفر لديه المال

فتدخلت احلام قائلة:

- ليس الامر كذلك . . ولكني اقترح حلاً . . لعلكم توافقون.

- تكلمي.

- اقترح ان يكتب البيت باسمها . . انه يعوض عن المهر كله . . معجلة ومؤجلة.

ماذا قلتِ؟

- القول للاستاذ خالد.

- لماذا البيت؟

- اذا كنت لا تستطيع ان تدفع المهر فماذا تفعل؟ تستدين؟

- لا . . ولكن . . اذا كنا سنتزوج، ونعيش في بيت واحد، فما الفرق ان يكون البيت باسمي او باسمها؟!

قالت احلام:

- لا فرق . . ولكني اردت ان انقذك من سوط العذاب الذي صبته عليك مروج.

فضحكت ام عايدة، وقالت معاتبة:

ـ اتريدين ان تثيريه ضدي؟

ثم اضافت بتواضع شديد:

ـ انا اوافق على اقتراح احلام.

ـ توافقين؟

ـ نعم.. وجميع مصاريف نقل الملكية اتحملها انا.. ولا اطلب المزيد.

اما احتفالات الزواج.. فافضل ان تسافرا لقضاء شهر العسل خارج العراق.

اطربته كلمة (شهر العسل) فتبسم حالماً:

ـ انا كنت افكر بهذا.

نهض السيد محمود الذي ظل صامتاً طوال المناقشة الاخيرة، وقال بحدة:

ـ لنذهب الآن.. وسنعود الى الموضوع في المرة القادمة واستحث السيد خالد:

ـ رئيس المؤسسة ينتظرنا في المؤسسة.

★★★

وفي الطريق، كان السيد محمود يسب ويلعن:

ـ كيف لم افطن الى هذا؟.. كانت المؤامرة على البيت وكل ما القته الينا من طعم بقصد استمالتنا.. والسيطرة علينا.

مدير حسابات

مدير (خردوات)

obeikandl.com

يا للمغفل!!

ضربت حساباتي كلها في وجهي، وتركتني حائراً لا ادري ما اقول..

خدعتني.

ارادت ان اقف الى جانبها!

مكر النساء!!

★★★

لم يخبر خالد امه بما حدث، ولكنه عزم على ترك الموضوع، والتريث في الوقت الحاضر، لعله يستطيع العثور على فتاة مناسبة. وعلى هذا اتفق مع السيد محمود مدير الحسابات.

وبعد اسبوع من ذلك اللقاء، وقبل انتهاء الدوام الرسمي من يوم الخميس، فوجيء بدخول عايدة عليه..

- ستتناول الغذاء معي هذا اليوم.

وقبل ان يقول شيئاً.. يقبل او يعتذر، اضافت تقول:

- انت مدعو للغذاء في بيتي.

- شكراً.. ولكن..

جرته من يده وهي تقول:

- تعال معي ودع (لكن) لاهلها.

كانت ترتدي ثوباً اسود تنتشر عليه زهور ملونة، ويشف عن ثوب ابيض تحته بنفس الحجم. ومن باب المؤسسة، استوقفت سيارة.. ودفع الاجرة من جيبه سيكون اليوم الفارس الاوحد!

بلا منازع ولا منافس ولا مشاكس!

- فلا يخيم، ولا يغيم، ولا يتكلم نيابة عنه احد!

انه مدير!!

- تفضل.. تفضل.. لا تطرق الجرس.. هذا بيتك.

وقبل ان يدخل خرج ابوها..

ثياب مهملة، ولحية مهملة، وظهر بدأ بالانحناء اكثر، وسلة في يده.. ونظرة محيرة من عينيه. ولم يدر.. أتحركت شفتاه برد التحية ام لم تتحرك!

اما عايدة، فقد دخلت بسرعة وهي تصيح:

- ماما.. ماما..

وخرجت الام..

- اهلاً.. اهلاً.. خطوة عزيزة.. خطوة مباركة.. تفضل.

ثوب بني وشعر أحمر بدا اكثر طواعية من المرتين السابقتين اللتين رآه فيهما، وعينان زرقاوان استطاعت ادوات التجميل ان تبعث فيهما، شيئاً من الحياة والحيوية.. بل شيئاً كثيراً.. وان بقيت الزرقة خافتة باهتة كما رآها سابقا، ولكن الدهون والمساحيق بعثت فيهما حياة جديدة!

امتلأ صدره فرحاً وسروراً، وقبل ان يصل اليها، انحنى، كما فعل السيد محمود، فقطف زهرة بيضاء وضعها على صدره ثم مد يده يصافح ام عايده. وقد احتار ماذا يقول صباح الخير ام مساء الخير.. وتغلب على تردده فقال:

- السلام عليكم.

- اهلاً.. اهلاً.. اين الاستاذ محمود؟

ودخلت دون ان تنتظر الجواب، وكأنها تعرف الجواب! وقادته الى غرفة الجلوس، لا الى غرفة الاستقبال:

- تفضل.. انت في بيتك.

ارتاح السيد خالد على الاريكة وهو يقول:

- يا الله.

وقد حاول ان يقلد قليلاً، طريقة السيد محمود. ثم اخذ ينظر الى التلفزيون الصغير الذي وضع في الزاوية اليمنى من الغرفة على منضدة صغيرة مكونة من طابقين، وضع على الطابق الاسفل منها ساعة ذات اجراس! كانت تشير الى الثانية عشرة والنصف.

وانتبهت السيدة الى موضع اهتمامه فقالت:

- هذا التلفزيون جلبته معي من المانيا.. اشتراه ابني عماد.. إنه يشتغل في مصنع للادوات الكهربائية هناك!!.

ثم أضافت بفخر:

- انه يتقاضىٰ مائة مارك شهرياً.

- مائة مارك؟.. لعل تقصدين الف مارك؟

نفت ذلك باشارة من يدها وحركة من شفتيها:

- المارك الواحد يساوي خمسة دنانير.. فهو يتقاضىٰ خمسمائة دينار شهرياً.

بالأمس.. بالأمس فقط كان السيد محمود يكلم رئيس المؤسسة ويقول له بان المارك الواحد يساوي ثمانين فلساً!!

عاد يقول:

- لعله يتقاضى مائة مارك اسبوعياً.

اجابت وهي تنسحب الى الداخل:

ـ مائة مارك شهرياً.

لم يحضر الوالد.. وكان اياد الصغير ينظر من وراء النافذة ثم ينسحب. وعندما بلغت الساعة الواحدة تماماً، اقبلت الام تقول، وقد رفعت يدها، فانزلقت الاسورة توسوس:

ـ تفضل.. الغداء جاهز.

فتبسم خجلاً، وقام متردداً وهو يقول:

ـ والله.. ان امي..

ـ تفضل.. انا امك ايضاً.

وشعر بكثير من الرعاية والاهتمام والترحيب.. لماذا؟ وكان الغداء شهياً جيداً متنوعاً. وكانت عايدة قد غيرت ملابسها، فلبست ثوباً طويلاً عريضاً، كالذي كانت ترتديه حميدة عند اول تعيينها في المؤسسة!. كان ذلك قديماً مهملاً متواضعاً، اما هذا، فانيق نظيف ضاحك ببياض لونه وازهاره الصغيرة المتناثرة عليه!!. كانت عايدة تقدم امامه اطباق الطعام وتتبرع الام بتسميتها:

ـ هذه اكلة تركية لا تعرفها الا العوائل العريقة في اسطنبول. وهذه اكلة سويسرية.. اما هذه، فانها اكلة فرنسية يأكلها سكان العاصمة فينا!

توقفت الملعقة التي كانت تحمل شيئاً من الحساء، في منتصف المسافة، بين الصحن وفمه. ونظر الى ام عايدة التي كانت تلتقط حبة زيتون بشوكة في يدها، وقال:

ـ عاصمة فرنسا باريس.

فهـزت رأسهـا وهي تتـرك حبـة الزيتون التي استعصت على الشوكة ان تنالها، وتناولت كسرة من الخبز:

ـ لا . . عاصمـة فرنسـا فينا . . اما باريس فانها عاصمة اسبانيا ثم قضمت كسرة الخبز باسنانها وقالت:

ـ انـا زرت باريس اربـع مرات . . هذا الثـوب الذي ترتديه عايدة اشتريته من هناك.

اعاد الملعقة الى الصحن، ومد يده ليتناول الماء:

ـ لكن عاصمة اسبانيا مدريد!

فقهقهت ساخرة وقالت:

ـ هل زرت باريس؟ انا زرت باريس عاصمة اسبانيا اربع مرات.

واسرعت عايدة تحول مجرى الحديث:

ـ هل سمعت بما حدث اليوم في شعبة الاوراق؟

ـ ماذا حدث؟

ـ عاد عباس عبد كاظم من الاجازة.

ـ رأيته . . كان قد سافر الى بولونيا قبل شهرين.

ـ جاء الى الشعبة ليسلم على الموظفين . . ثم دخلت حميدة فمدت يدها لتسلم عليه . . فتناول يدها وقبلها . .

ـ قبل يدها؟!

ـ نعم . .

ـ عباس عبد كاظم قبل يد حميدة؟!

ـ نعم . .

فصرخت في وجهه . . وصفعته بقوة فوقع على الكرسي وانحنت بسرعة فخلعت حذاءها وارادت ان تضربه وهى تصرخ:

ـ انت تقبل يدي؟ . . سأجعل اخي يشق فمك!!

اما هو فكان يردد بمسكنة وذلة وتخاذل:

ـ كنا هناك نقبل ايادي النساء.

واقبل الموظفون يعاتبونه . . وهو يقول:

ـ كنا هناك . .

فصاح به ابوستار، وقد جره من رباط عنقه:

ـ انت هنا . . انت من هذا البلد . . انت من هذه الامة العزيزة العفيفة النظيفة.

ثم صرخ به بقوة ودفعه فوقع عن الكرسي الى الارض:

ـ احمق!!

انت تعلم طريقة السيد عبدالجبار في الكلام.

ـ هل كان الحاج اسماعيل حاضراً؟

ـ لا . . لو كان حاضراً لضربه بالارض!

اطرق قليلاً، ثم رفع رأسه:

ـ ماذا كنتِ تفعلين لو قبل يدك؟

ـ ماذا تفعل انت؟

ـ اصعد الى رئيس المؤسسة، ليأمر بفصله من الوظيفة حالاً.

وبعد الغداء، جلس ليستريح . . فقالت الام:

ـ هل تحب الموسيقى؟

لم يشعر بمثل هذا العز، ولم يذق طعمه من قبل . . فقال وكأنه ملك يطير على اجنحة الخيال:

ـ احب الشاي بعدا لغداء.

فنهضت وهي تقول.

ـ يأتيك حالاً.

وبعد قليل عادت وهي تحمل صينية من البلور فقالت.

ـ هذه الصينية ارسلها ابني زهير من النمسا.

فمد يده يتناول كأس الشاي وسأل:

ـ اظن ان الاستاذ زهير قد عاد من امريكا؟

فاجابت وهي تضع الكأس الثاني امام عايدة، بينما احتفظت بالكأس الثالث لنفسها:

ـ انه لم يذهب الى امريكا.. انه في النمسا.. انه يشتغل في اكبر مصنع للحلويات هناك!!

لم يحول نظره الى عايدة.

وراح يفكر وهو يشرب الشاي بهدوء. ولم يبد على عايدة انها سمعت شيئاً مما دار بينه وبين امها. واراد ان يعيد القدح الفارغ الى الصينية فهبت الام تقول:

ـ لا والله.

وتناولت القدح من يده واعادته الى الصينية التي كانت تنتظر.. وانسته هذه المجاملة قصة زهير والجامعة الامريكية والنمسا، وشعر بنفسه يقول بعد ان تردد قليلاً:

ـ ماذا قررتم؟

فاعتدلت الام، وفتحت يديها ببراءة:

ـ انما نقرر ما تقرر.

ـ اننا توقفنا عند المهر.

فضحكت وقالت:

ـ يا رجل. . . . .

انـا على استعداد لأن اقدم لك كل ما تطلب. . اخبرني كم تحتاج وانا احضره حالاً.

وفوجيء بهذا الكرم. . فقال:

ـ شكراً. . ولكن. .

ـ اطلب. . اطلب ما تشاء. . خذ هذه الاسورة.

وحاولت ان تنزعها. . فنهض ماداً يديه، معتذراً وراجياً:

ـ لا. . لا. . ارجوكِ. .

ثم جلس وقال:

ـ ولكن تسجيل البيت. .

فنظرت إليه. . بعينين فيهما الرقة والعذوبة والعتاب:

ـ انما اردت ذلك كشيء شكلي لا اكثر. .

لكي أفتخر ببنتي الصغيرة.

الا يحق لي ان افرح وارقص وافتخر ببنتي وزوج بنتي؟

غمرته فرحة عارمة، فنهض من مكانه، وانحنى عليها فقبلها من رأسها. . ثم اخذ يدها فقبلها وهو يقول:

ـ اطلبي ما تشائين فانا رهن اشارتك. .

ـ بل انت فاطلب ما تشاء ونحن نلبي دون تردد!!

★★★

وهكذا وقع في الفخ.

وقدم البيت مهراً لعايدة. .!!

ولما اخبر امه. . بعد ذلك. . اطرقت ساعة، ثم رفعت رأسها،

والالم يمزقها، والدموع تصرح في عينيها وقالت:
ـ لماذا؟ . . «بنت السلطان حمودة»؟!!

ولما سمع محمود، سكت طويلاً، ثم قال وكأنه يخاطب نفسه:
ـ كان مهر امي ثلاثين روبية.
ثم التفت اليه وقال مواسياً:
ـ لا تندم على ما فات.

★★★

واشار عليه السيد محمود بان يشتري الاثاث من محلات المزاد، انه سيعثر على نوعية جيدة بثمن رخيص! فاشترى اثاثاً لغرفتي المنام والاستقبال. ولكنه كان يشعر في نفسه بالخوف والانكسار. . ماذا لو علمت الام؟! وطمأنه السيد محمود عندما جاء بصباغ ممتاز هو السيد عزاوي الذي استطاع بكل مهارة ان يعيد للاخشاب الجدة والجمال والشباب!!

في مساء الخميس، في الساعة الثامنة وخمس دقائق، وقفت سيارة جميلة انيقة بيضاء، ترجلت منها ام عايدة وهي تقول:
ـ مساء الخير.
فاستقبلها السيد محمود:
ـ اهلاً . . اهلاً . . اهلاً بعمتي العزيزة ام عايدة.
كانت ترتدي ثوباً لامعاً صارخاً شاباً بلون النبات لا يناسب عمرها، وكانت تحمل حقيبة يد بنفس اللون . .
ـ اهلاً بالاستاذ محمود.

ثم ترجلت عايدة . . بثوب ابيض لامع ايضاً . .

وقد نقشت على الجهة اليسرى من الصدر زهرة ملونة . وكانت تحمل حقيبة يد سوداء

ـ مساء الخير . .

ـ اهلاً بالاستاذة عايدة . . اهلاً . .

وخرج السيد خالد مسرعاً وهو يقول :

ـ هل حضروا . . ؟

ثم اسرع الى عمته يرحب بها ، ثم صافح عايدة وهو يقول :

ـ اهلا عايدة . .

ثم ترجل من المقعد الامامي للسيارة رجل مهيب الطلعة متوسط القامة أبيض الشعر .

ـ السلام عليكم . .

قدمته ام عايدة وهي تقول :

ـ ابواحلام . . جارنا . . انه ابواحلام . . مدير متقاعد .

صافحه السيد محمود بحرارة :

ـ اهلاً (عمي) . . اهلاً بابي احلام .

وصافحه السيد خالد وهو يقدم نفسه :

ـ خالد عبدالمجيد الصالح .

اضافت ام عايدة :

ـ خطيب عايدة .

ـ تشرفنا .

من الناحية الثانية للسيارة ، ترجلت فتاة ، بلباس اسلامي

جميل، وربطة بيضاء تحتضن شعرها بحنان فلا يظهر منه شيء.

فنظر اليها السيد محمود قليلا ثم صاح:

ـ انت تريدين الذهاب الى الحج.. لا تنكري.

فاجاب ابوها:

ـ انما نريد الذهاب الى العمرة!

قالت احلام.. وقد بدت جميلة مهيبة اصغر سناً من المرة السابقة:

ـ لم نستطع ان نهتدي الى البيت بسهولة.

فالتفت السيد محمود الى السيد خالد:

ـ لماذا؟.. الم تخبرهم بان خروفاً ابيض كان هنا قبل المغرب؟!

فضحك الجميع..

وتقدم السيد خالد وهو يشير بيده:

ـ تفضلوا.

كان البيت قد انير انارة رائعة.. فبدت الاخشاب لامعة ضاحكة، اثارت دهشة الام واعجابها فهتفت:

ـ الله..

وراحت تتلمس خشب الارائك بيدها وهي تقول:

ـ رائعة.. رائعة.. بكم اشتريتم هذه؟

اراد السيد خالد ان يقول: باربعين ديناراً.. ولكن السيد محمود صاح وهو يتقدم بسرعة:

ـ باربعمائة دينار فقط.. بذلت المستحيل حتى استطعت ان احصل عليها بهذا الثمن!

obeikandl.com

ثم حوَّل الحديث وهو ينظر اليها باعجاب:

ـ ان الذي ينظر اليك لا يمكن.. ابداً ابداً.. لا يمكن ان يظن الا انك اخت عايدة لا امها.

فضحكت بسرور وقالت:

ـ اكثر الناس يظنون انها اختي.

ـ طبعاً.. طبعاً..

ثم اشار بيده الى السيد خالد:

ـ سليه.. سلي الاستاذ خالد.. عندما زرتكم في البيت لاول مرة.. قلت له: هل هذه اختها؟!!

كان السيد خالد يبتسم فقط، ويهز رأسه مؤيداً.. ثم قادها الى غرفة المنام، ووقف امام خزانة الملابس ذات الابواب الاربع، والتفت اليها:

ـ بكم تقدرين سعر هذه الخزانة؟.. انا اعلم انك ستذكرين السعر بالضبط.

ـ فتحت الخزانة ونظرت اليها جيداً ثم قالت:

ـ سبعمائة دينار.

التفت الى السيد خالد وهو يبدي اعجابه بتقديرها:

ـ الم اقل لك.. ان اي انسان لا يستطيع ان يقدر تقديراً صحيحاً مضبوطاً كهذا.

تمتم السيد خالد محاولاً ان يقول شيئاً، ولكنه قاطعه:

ـ اعلم.. اعلم انك تريد ان تقول انها بسبعمائة وخمسين ديناراً.. لا فرق.. لا فرق.. انها قدرت تقديراً صحيحاً!!

وهكذا راح يضرب الرقم الصحيح بعشرة وعشرين وهي تصدق بل تتعجب، بل تريد ان يكون الرقم اكبر واكبر لكي تسمع احلام، فتحدث الجيران!!

لم تظهر السيدة عزيزة بنت (الحجية) ام السيد خالد! انكمشت على نفسها في المطبخ تهيء العشاء والشاي وما يجب ان يقدم للضيوف من فواكه.. ولم تسأل عنها عايدة ولا امها. وتسللت اليها احلام عندما سمعتها تسعل:

- مساء الخير.

التفتت ام خالد بسرعة ونظرت اليها بدهشة:

- اهلا بنتي..

ثم سألتها:

- انت اخت عايدة؟

- انا صديقتها.. احلام.

ثم نظرت الى ملابسها التي تصل الى الرسغين.. الى القدمين:

- هل رآك ابني قبل ان يخطب عايدة؟

فتبسمت وهي تجيب:

- لا.

- هل انت متزوجة؟

فهزت رأسها الذي تحتضنه الربطة البيضاء:

- كنت متزوجة.

- فهتفت وهي تضرب بيدها على صدرها:

obeikandl.com

ـ هل طلقك؟!!

فضحكت احلام وقالت:

ـ بل توفي.

ـ الى رحمة الله.. البقية في حياتك.

ـ اشكرك.

ـ سكتت قليلاً.. ثم سألتها:

ـ هل ترك لك شيئاً؟.

ـ كثيراً.. والحمد لله.

ـ الحمد لله.

ـ ساساعدك في اعداد الطعام.

ـ لا تكلفي نفسك.

ـ ساشعر بالراحة اذا ساعدتك.

ـ اشكرك.

لم يدر السيد محمود لماذا شعر بان السيدة الذكية الثرية التي تحدثت عنها ام عايدة في بيتها هي احلام.. احلام لا غيرها!! بل لم يرد ان تكـون الا اياهـا.. لقـد دخلت الى عقله وقلبـه بلا استئذان!.. لا سيما عندما رآها بهذا الزي الحبيب المهيب..

وراح يتودد الى ابيها.. وتلجلج لسانه فلم يعرف كيف يكلمه وهو الطليق!!

وعندما حانت ساعة الانصراف، قالت ام عايدة:

ـ هل تريد ان نوصلك الى منطقة السيارات يا استاذ محمود؟

ولكن ابا احلام قال:

ـ بل نوصله الى المكان الذى يريد.

obeikandl.com

- اشكرك يا عمي . . اشكرك . . انا اسكن الاعظمية .
- نوصلك الى الاعظمية .

ثم مد ابواحلام يده فصافح السيد خالد وهو يقول :

- بارك الله لك وبارك عليك وجمع بينكما في خير .
- اشكرك .

لم يحصل السيد خالد من عايدة على كلمة ثناء او امتنان على الرغم من كل ما بذله السيد محمود من عرض واشادة بفضله وكرمه . لا يدري لماذا يشعر بحاجز بينها وبينه . . وبينه وبين اهلها؟! الشخص الوحيد الذي شعر بالميل اليه والتجاوب معه والدها!! . . انه لم يتكلم معه . . ولكن العيون كانت تقول اشياء واشياء لا يستطيع اللسان مهما اوتي من بيان ان يعبر عنها!!

★★★

عندما عاد من لبنان ، بعد قضاء شهر العسل ، لم يأت محمود لتهنئته . ولما سأل عنه ، قال الحاج اسماعيل :

- تزوج السيدة احلام ، وسافر معها الى مصر . . ومن هناك سيذهب معها الى مكة . . لاداء العمرة .

وبعد شهرين ارسل السيد محمود استقالته من المؤسسة ! وقال في رسالة صغيرة بعث بها إليه . . ان الوظيفة للكسالى والعجزة . . ومحدودي الرزق!!

obeikandl.com

١٠- في طريق النور ...

obeikandl.com

ـ ام جمعة . .

صاح سبتي بصوت عال جعل الجميع ينتفضون وينظرون إليه .

ـ ام جمعة . .

ثم تطلع بعينيه المنتفختين في الوجوه، وقال:

ـ من انتم؟ . . . . . ماذا تريدون؟ . . .

مدَّ السيد صبحي يده اليمنى مشيراً باصبع السبابة الى انف سبتي، ثم حركها الى جهة اليمين وهو يقول:

ـ انظر. . انظر. . انظر. . انه الاستاذ.

ـ الاستاذ؟

ـ نعم.

ـ الاستاذ؟

ـ نعم. . انه الاستاذ خالد.

ـ لماذا. . لماذا جاء. . لماذا جاء الاستاذ الى بيتي؟

ـ نحن في المصعد.

ـ انتم في المصعد؟ . . انا في بيتي . . لماذا جاء الاستاذ الى بيتي؟

صاح السيد صبحي:

ـ نحن وانت والاستاذ كلنا في المصعد.

ـ لماذا؟

ـ هل نسيت؟

ـ لا . . انتم في المصعد وانا في بيتي.

تثاءب السيد عبدالفتاح، وتمطى بجسمه، ثم اخرج منديلاً ابيض مسح به انفه وشاربه الذي تخلله الشيب، ثم هزَّ سبتي من ركبتيه وقال:

- انظر.. نحن الخمسة في المصعد.

نظر سبتي بعينيه متفحصاً ثم قال:

- انتم اربعة.. اين الخامس؟

انفجر الاربعة ضاحكين، وراح الحاج اسماعيل يسعل وهو يريد ان يسيطر على نفسه من الضحك.. ثم قال:

- نحن اربعة وانت الخامس.

- انا الخامس.. لماذا؟

- لماذا؟!

- لماذا انتم هنا.. اين ام جمعة؟

صرخ المدير في وجهه:

- يا غبي.. يا غبي. نحن في المصعد من الليلة الماضية بسبب جهلك وغبائك.. و..

- اريد ان اذهب الى البيت.. انا (جوعان).

ثم راح يبحث في جيوبه عن شيء يأكله. وبعد قليل اخرج قطعة من الحلوى ملفوفة بورق سميك، فازاح عنها الورق والقاها في فمه. وبعد قليل سأله السيد صبحي:

- هل تريد حليباً؟

- لا.

- هل تريد شاياً دافئاً؟

- لا.

obeikandl.com

صمت قليلاً، ودار بعينه في الوجوه:

ـ انتم تسخرون مني.

هز السيد صبحي رأسه:

ـ نعم.

اخذ سبتي يستعيد وعيه.. فسأل:

ـ هل نمنا كلنا في المصعد؟

ـ نعم.

ـ وانا معكم؟

ـ وانت معنا.

فتبسم مسروراً وقال:

ـ كنت اتمنى هذا.

ثم ضحك واضاف:

ـ ساذهب غداً مع ام جمعة الى الرمادي.

ـ غداً انت في الدائرة.

ـ لا.. غداً عطلة رسمية.

ـ سيكون العيد يوم الاحد.

ـ غداً عطلة رسمية.. ثم عيد الاضحى اربعة ايام.. ثم يوم الخميس عطلة رسمية أيضاً.

هتف الجميع مذعورين.

ـ غداً عطلة رسمية؟!

انتفض سبتي خائفاً واقفاً:

ـ تايه اخبرني..

obeikandl.com

هو سمع المذيع يقول . . السبت والخميس عطلة رسمية .

ـ تايه اخبرك بذلك؟

ـ نعم . . الم تعلموا؟ :

لم يتمالك السيد صبحي نفسه ، فراح يضرب على رأسه ويبكي كالاطفال :

ـ يا ربي . . يا ربي . . يا ربي . . ثمانية ايام في المصعد . .

مَن منا سيبقى حياً . .

كلنا سنموت . .

كلنا سنموت . .

سنموت . .

جذب الحاج اسماعيل سبتي ، وادناه اليه :

ـ أمتأكد انت مما قلت؟

ـ ماذا قلت؟

ـ امتأكد انت ان تايه اخبرك؟

ـ ماذا اخبرني؟

ـ هل سمع تايه المذيع يقول ان السبت والخميس عطلة رسمية؟

ـ نعم . . الم يخبركم؟

ـ متى قال لك ذلك؟

ـ عندما طلبت اليه ان يشتري علبة سكاير للاستاذ .

ـ ماذا قال لك؟

ـ قال ان الاسبوع القادم كله عطلة رسمية . وانه سمع ذلك عندما كان يشرب الشاي في المقهى .

obeikandl.com

كان الجميع قد نهضوا واقفين، ما عدا السيد صبحي الذي بقي جالساً، دافناً رأسه بين ركبتيه وهو ينشج بالبكاء:

ـ كنت اظن اننا سنخرج من المصعد غداً عندما يأتي الموظفون.. كنت اريد ان اتمتع بالعيد.. اريد ان اعيش.. يا ربي.. يا ربي!

كان الهم والغم واليأس قد خيم، عليهم، وقد راح الحاج اسماعيل يردد مع نفسه:

ـ لا اله الا انت سبحانك اني كنت من الظالمين.

ونظر المدير الى ساعته:

ـ انها الثانية والنصف بعد الظهر!

قال الحاج اسماعيل:

ـ يجب ان اصلي الظهر، فان العصر يؤذن في الثالثة والنصف وست دقائق.

اراد المدير ان يتهجم على سبتي، فراح يدندن..:

ـ هذا القرد..

لكن الحاج اسماعيل قال له بكل ثقة وهدوء:

ـ دعه.. فان ارادة اعلى واقوى من كل ارادة قد اضطرتنا الى ما نحن فيه.. لم يكن هو السبب.. نحن السبب!

اننا مذنبون..

لقد اذنبنا ذنباً نستحق عليه ما نحن فيه!

ثم مدَّ يده فضغط على مفتاح المروحة، فراحت تدور في سقف المصعد ترسل هواءً منعشاً جعل السيد صبحي يكف عن البكاء ولكن بقي جالساً في الزاوية البعيدة عن الباب يردد مع نفسه ذكر اولاده وزوجه وامه.

عاد الحاج اسماعيل فقال:

ـ يجب ان اصلي الظهر.

ثم اضاف:

ـ انه ما يزال امامنا امل في النجاة.. فان الله لا يتخلى عن عبده ابداً.

ثم تيمم.. ووقف يصلي.

ووقف كل من السيدين مدير الادارة وعبدالفتاح واجمين ذاهلين عن كل ما يحيط بهما. اما السيد عبدالفتاح فقد حلق بروحه الى ارضه.. الى بلاده.. يجوب في ربوعها، يتمنى لو مات.. لو قتل.. لو استشهد على ارضها!! لو انضم الى مواكب الشهداء الذين عطروا بدمائهم ارض الانبياء..

وراح السيد خالد يبكي بنفسه على امه، وعلى ولده الصغير العزيز.. كيف ستعيش بعده.. بل كيف ستموت؟!

اين يجد العمل الصالح الذي يدعو الله به؟

مرة رأيت امرأة في الطريق تعاني من آلام الوضع، فحملتها في سيارة اجرة وذهبت بها الى المستشفى..

هل يكتب ذلك العمل في صحيفتي؟!

انه لم يقصد بذلك العمل وجه الله.. اراد ان يقدم مساعدة فحسب!!

آه..

كثير من الناس يظنون ان كفتهم عند الله راجحة، وان ابواب الجنة ستفتح لهم!

انا لا اؤذي احداً . .

لا اتكلم على احد . .

انا افضل من هؤلاء المصلين . .

كيف . . كيف . . كيف . . ؟

ايها الاحمق . .

ايها الجاهل . .

كيف تزكي نفسك على الله؟

انت كذلك الطالب الكسل الخذول الشكس النكس الذي لا يحفظ دروسه ولا يؤدي واجباته، ثم يريد ان ينجح ويبز اقرانه؟!!

ماذا سأقول لربي عندما اقف بين يديه؟

لماذا ينسى المرء ربه عند الرخاء ويذكره عند الشدة؟!

انتهى الحاج اسماعيل من صلاته، ولكنه بقي جالساً يذكر الله تعالى .

لا إله إلا الله العظيم الحليم .

لا اله الا هو رب العرش العظيم .

لا اله الا الله رب السماوات ورب الارض، رب العرش الكريم . .

راح يردد هذا الدعاء كثيراً كثيراً . . وكان سبتي قد اخذ يضغط على الجرس وهو يدندن :

- «يا بوزبون الحبر

يا مطرزا بابرة .

كل الشرايع زلك .

من عندنا العبرة».

وانصت الحاج اسماعيل جيداً..

وراح يدير الكلمات بنفسه مع نفسه:

- «كل الشرايع زلك.. من عندنا العبرة»

نعم..

كل الشرايع زلق..

الا شريعة الله الخالدة!!

من اراد النجاة..

من اراد الحياة الحرة الكريمة..

من اراد سعادة الدارين..

من اراد ان يكون مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين..

فمن هنا..

من عندنا..

من شريعتنا..

شريعة الله الخالدة..

نهارها نهار.. وليلها انوار.. وكلها اقمار!!

عندما تخرج في كلية الحقوق، لم تكن لديه رغبة في الاشتغال في دوائر الدولة. كان يعتبر الوظيفة قيداً ثقيلا، بل عبودية متطورة!! ولم يشتغل بالمحاماة.. لان المحامي الجديد يحتاج الى وقت وصبر لكي يعرفه الناس ويكسب ثقتهم.

كان ابوه الدكتور احمد منصور، صاحب العيادة المعروفة في

شارع غازي، قرب ساحة الوصي، قد سجل بيتاً باسمه في الحارثية، فهو يتسلم ايجاره . . عشرين ديناراً كل شهر. واخوه كمال احمد منصور رئيس الملاحظين في مديرية الموانىء العراقية، في البصرة. يرسل له عشرة دنانير شهرياً. اما اخوه الاوسط بهجت احمد منصور، والذي يكبره بخمس سنوات، فلديه مزرعة ابي غريب لتربية الدواجن ويرسل له عشرة دنانير أيضاً. . كل شهر! . اما البقية. . الذين هم اصغر منه سناً، فكلهم بنات. . وعددهم اربعة. . اكبرهن حسنات، ثم سنابل، ثم نماء ثم قمر!

من النمسا كانت ترد اليه رسائل من صديقه عبدالرحيم نايف. . ذلك الشاب النحيف الخفيف المرح. . الذي ترك العراق بتأثير صديقه رشيد الذي كان يسكن الاعظمية، قريباً من بيت الحاج محمود عبدالوهاب، القارىء المعروف.

عبدالرحيم نايف لم تكن لديه مشاكل مع اي انسان. . كان حبيباً كريماً يتفتح القلب لاستقباله واحتضانه والترحيب به! ولكنه وقع تحت تأثير الرسائل التي كان يكتبها السيد رشيد الذي سافر قبله بسنة واخذ يحثه على السفر الى هناك. ومن المانيا كان السيد عبدالستار عباس وكاظم عبدالله الذي اكتسب الجنسية الالمانية!! ومن افغانستان، ثم من باكستان، ثم من هونكونك ثم من اليابان. . كان السيد صالح يراسله!!.

ثم انقطعت عنه الرسائل تباعاً. . عبدالستار وكاظم من المانيا، وعبدالرحيم ورشيد من النمسا. . وصالح من اليابان.

قامت في نفسه رغبة قوية للسفر الى هناك . . للطواف حول العالم . . لا ليبقى . . ولكن ليعرف السبب الذي من اجله فضل اولئك الشباب الاحبة البقاء في غير بلدهم!! وقدموا جهودهم وافكارهم وعقولهم، وكل ما يملكون، لامة غير امتهم!!

ما الذي جذبهم؟

ما الذي استهواهم؟

ما الذي حبب اليهم البقاء هناك وصرفهم عن امتهم؟!

ولكنه لم يفعل . .

منعه من السفر . . او من التعجيل بالسفر . . قدوم صديق عزيز، ذهب قبل سنوات الى فرنسا، ثم عاد مسرعاً . . لم يبق فيها غير اسبوع واحد . . ثم عاد مسرعاً يحمله الحب والحنين والشوق والندم! . .

انقلبت مفاتن باريس في نظره الى شيء كئيب كريه كريب!!

شعر كانه قد حوصر من كل مكان . .

مباهج باريس وفتنتها انقلبت في نظره الى ظلام!!

فضاقت عليه الدنيا . .

ونصحه الاطباء بالعودة الى العراق . .

فعاد . .

تحمله اجنحة الشوق الذي دونه شوق الحبيب الى الحبيب!!

وعندما هبط من الطائرة، بعد منتصف الليل . .

وقف يتنفس ملء صدره . .

ويحتضن بابتسامة عريضة سمراء، الوجوه الكثيرة التي خفت لاستقباله .

ولكن . .

بعد ايام قليلة ندم!

ندم على عودته بمثل تلك السرعة . .

ربما بسبب لوم الاصدقاء!

او بسبب الحاح الأهل . .

أو غير ذلك . .

ثم عاد مرة ثانية الى فرنسا . .

وبقي هناك سنتين اثنتين . .

ثم رجع الى العراق . .

. . . . . .

عاد هذه المرة بغير الثوب الناصع الذي ذهب به . .

بغير القلب النظيف الذي كان يحمله . .

بغير الروح الرفيف . .

بغير الشارب الجميل . .

بغير اللسان الاصيل . .

ماذا فعلت فرنسا به؟!

عاد مسخاً هزيلاً . . هزيلاً . . هزيلاً . . بلا قلب، بلا حب، بلا شوق .

بلا لهفة لهذا البلد ولا لاهل هذا البلد!!

عاد لا يعرف اهله ولا اصدقاءه ولا جيرانه . .

عاد يتغنى بفرنسا في قيامه وقعوده ونومه ويقظته!

ولم يتحمل السيد اسماعيل . . فهتف به مستنكراً:

obeikandl.com

ـ من انت؟

ـ انا . . انا . .

فقاطعه ابوحقي بالم واسف وغضب:

ـ انا لا اعرفك . .

ان صديقي الذي اعرفه واحبه واحترمه قد مات . .

مات يوم خرجنا لتوديعه في المطار!!

ولم تمض مدة طويلة حتى عاد من امريكا صديق عزيز . . يتفجر حباً وعاطفة وحياءً . . وبفرحة غامرة ذهب اسماعيل لاستقباله . . لرؤيته . .

كان يريد ان يطير اليه . .

ان يصل اليه على جناح البرق . .

وعندما رآه . .

شعر بقلبه يبكي خيبة والماً وحسرة!!

لقد عاد الصديق العزيز مسلوب الروح والقلب والشارب . . والارادة!!

عاد مشوهاً . .

متنكراً لكل عزيز علينا!

انه لا يريد ان يتكلم لغتنا . .

ليس في نظرته واقواله واشارته غير الازدراء والسخرية والتقزز والتقذر من كل ما يحيط به!

وترك فريداً هذا . .

وتمنى لو لم يعد الى العراق . .

او لم يذهب الى امريكا!

ما الـذي يقـدمه الغرب لابنائنا حتى يستطيع ان ينتزعهم منا ويطوقهم بقيد يشدهم اليه ويجعلهم عبيداً له؟!!

وبعد اشهر قليلة عاد من امريكا صديقه محمود. . كان هذا قد ذهب الى بيروت ثم الى فرنسـا ثم الى كنـدا ثم الى الـولايات المتحـدة. ومكث خلال رحلتـه الـطويلة ودراستـه اكثـر من عشر سنوات. . ثم عاد. .

وتردد اسماعيل في الذهاب اليه. . وخشي ان يستقبله بنفس الوجه المنضوج بالخل الذي استقبله به فريد! وشد ما كانت فرحته ودهشته واعجابه، عندما استقبله محمود بروحه وقلبه وعقله وعطره ولسـانـه لم يتبـدل منه شيء. . !! لم تستطع امريكا بكل مفاتنها ومباذلها ان تنال منه!

عاد بنفس القلب الصحيح السليم. .

بنفس العقل والشارب واللسان. .

بشخصيته القوية. .

بسمته المحبوب. .

بلهجته البغدادية القديمة!

عاد يحمـل روح امتنـا الحبيبة، ولهجة شعبنا الكريم، وعطر بلدنا العزيز. . كان صحيحاً سليما معافى. .

لم يستلب. .

لم ينتهب. .

لم يلوث . .
نقي العقل، نقي القلب، طاهر الذيل!!

★ ★ ★

ورغم الراحة التي شعر بها عندما التقى بصديقه محمود، الذي لم يغير ولاءه لهذه الامة، ولم يغير اخلاصه لهذا الشعب، ولم ينقص تعلقه بهما . . فقد اخذت تلح عليه وتطرق عقله وقلبه بقوة، وتزعجه عن مأكله وملبسه، مسألة مهمة!!

لماذا يتعلق بعض شبابنا بدول الكفر . . بدول البغي . . بدول العدوان؟!

لماذا يحولون ولاءهم الى تلك الدول التي تعمل ليل نهار على تمزيقنا، تشتيتنا، اذلالنا، استعبادنا؟!

لماذا لم يحولوا هذا الحب العرم الى امتهم . . الى شعبهم؟!

في مطعم كامل . . في شارع الرشيد، رأى شاباً يدافع بكل وقاحة وصلافة وصفاقة عن الانكليز ! . . كان ثائراً غاضباً يسب ويلعن ويشتم كل من يعاديهم!!

في محلته . . كان هشام ابوغدة . . يهيم بحب الالمان النازيين، وقد طبع الصليب المعقوف على زنده الايمن بالوشم الاخضر . . وكان يحمل صورة هتلر ويخفيها تحت ملابسه!!

في الكلية كانت معه فتاة تدعى ازهار . . تتغنى، بل تتمنى . . بل تحلم باليوم الذي تغمض فيه عينيها ثم تفتحهما فتجد نفسها في روسيا!!

واتباع نوري سعيد، وغير نوري سعيد، ممن يخدم الانكليز والفرنسيين والامريكان والالمان، باخلاص يفوق الف مرة اخلاص اولئك الاقوام انفسهم لانفسهم!!

لا بد ان اولئك الشباب والحكام يفقدون شيئاً عزيزاً ثمينا غالياً!!

ماذا يفقدون؟

راح يفكر في امتنا العظيمة..
تاريخنا المجيد..
في بطولاتنا وفتوحاتنا..
ماذا نعرف عن تاريخنا؟..

سطور قليلة باقلام ملوثة غطت تاريخ امتنا الناصع بغبار من التهم والاكاذيب والاباطيل، تجعل الطالب في المدرسة يزدري نفسه، ويزدري امته، ويزدري وطنه!!..

فاذا جاء الى التاريخ الاوروبي، وجده محاطاً بهالة من التقدير والتفخيم والتمجيد والاعجاب الذي ما بعده اعجاب!!

كان مدرس التاريخ، يصف هجوم الاسطول الاوروبي على الاسطول العثماني، وتدميره له.. بكل فخر!! ينفخ صدره ويرفع رأسه، ويشير بيده، وكأنه يقود بنفسه تلك المعركة ضد الاسطول العثماني! وما درى المدرس المسكين.. ان ذلك الاسطول الذي دمره الاوروبيون، كان يحمل ابي واباه، وجدي وجده.. كان نصف جنوده من العرب المسلمين!!.

اراد اسماعيل ان يرجع الى تاريخ امته العظيمة، الامة العزيزة المرهوبة، التي يحاول العالم الظالم سحقها، وتدميرها، وتسليط نفايات الارض عليها، واجبارها على الخضوع..

على الركوع..

على الخنوع..

لكي يستطيع ان يضع القيد في عنقها، ويجرها كسيرة اسيرة هزيمة ذليلة!!..

هذه الامة العظيمة..

لا بد انها تمتلك من اسباب النهوض والقوة والتفوق ما لا تمتلكه امة على وجه الارض!

لذلك يخشاها الطغاة..

لذلك يهابها العالم المجنون..

لذلك يحسب لها الجبابرة الذين يسيطرون على دفة العالم الف حساب!!

فمن اين يبدأ؟

وماذا يقرأ؟

قرأ لرجال معاصرين يجيدون تسويد صفحات كثيرة يخرجونها على شكل كتاب.. فاذا قرأها قارىء لم يجدها شيئاً!! اقلام هزيلة سحيلة ليست لديها القابلية على الوقوف بقوة واعتزاز..

اقلام لا تستطيع قول الحق، واذا قالته احاطته بمئات من الاعتذارات والمسوغات والتعلات التي تذهب بروعة الحق وقوته وسطوته وبهائه!!

ثم اخذ يتردد على المكتبات العامة . . مكتبات الاوقاف، مكتبات الادارة المحلية، ومكتبة المجمع العلمي العراقي . .

في مكتبة المجمع العلمي التقى بالرجل الذي دله على الطريق . . كان الرجل قد تناول الاربعين من العمر . . طويلاً مهيباً، تتوج رأسه سدارة سوداء، تبدو عليه الصراحة والسماحة والخلق الكريم .

اراد ان يسأله . . فتردد . .

شعر بهالة من الهيبة والاحترام تحول بينه وبينه! . . شعر بهالة من النور الخفي . .

وقف في مكانه يقلب كتاباً لم يقرأ عنوانه . .

كان يريد ان يتحدث الى الرجل . .

لعله يستطيع ان يرشده . .

شيء غريب جذبه اليه . .

وسمعه يسأله عن الكتاب الذي يحمله . .

فرفع نظره اليه . .

وخيل اليه انه يعرفه من قديم . .

فسلم عليه . .

ثم نظر في عنوان الكتاب : أعلام الموقعين عن رب العالمين .

سأله الرجل :

ـ هل تريد ان تقرأه؟

هز رأسه :

ـ لا .

ثم اضاف قائلا سائلاً:

ـ انني ابحث عن كتب تتحدث عن تاريخ امتنا.. عن بدايتها امة عظيمة مرهوبة مرغوبة!

قال الرجل:

ـ اقرأ كتب السيرة.

ثم اضاف عندما بقي ينظر اليه يتطلع الى المزيد:

ـ اقرأ كتب السيرة النبوية.. وسيرة الصحابة. ثم راح يعدد له قائمة بأسماء الكتب واسماء مؤلفيها. ورجاه السيد اسماعيل ان يسمح له بكتابتها، فجلسا في ناحية وراح يكتب ما يملي عليه.

ثم سأله الرجل:

ـ هل تصلي؟

اجاب بكل بساطة:

ـ لا.

فأخذ الرجل الكتاب الذي كان أمامه، وقال:

ـ انظر:

وأشار بيده الى عنوان الكتاب:

ـ إن لكل كتاب عنواناً.. وعنوان المسلم الصلاة.

ولما ذهب. سأل أمين المكتبة، الذي ابدى له احتراماً بالغاً:

ـ من الرجل؟

ـ ألا تعرفه؟

ـ نعم.

وقبل ان يجيب، أقبل رئيس المجمع العلمي يتبعه ثلاثة من

الأساتذة، فخف امين المكتبة للترحيب بهم!

★ ★ ★

وراح يقرأ كتب السيرة، ويقرأ.. ويستزيد.. ويريد ان يسبق الزمن، ويعوض ما فاته من علوم نافعة، ويتمنى لو استطاع أن يأكل الكتب، يلتهمها، فتتحول علومها الى عقله وقلبه!!

وكان خلال قراءته تلك، تطرق قلبه كلمة الرجل المهيب:

ـ لكل كتاب عنوان.. وعنوان المسلم الصلاة!

وذهب يوم الجمعة الى المسجد، وقبل أن يدخل الحرم، شاهد صديقه الشاب الهادىء الطيب الوديع فائق عبدالحميد يخرج مسرعاً، وقال وهو يسلم عليه:

ـ سأتوضأ وأعود حالاً.

وتذكر أنه لم يتوضأ.

ولكن، كيف يتوضأ؟

ذهب الى الميضأة، وأخذ يسترق النظر الى المتوضئين، ويتوضأ مثلهم. وعندما دخل الحرم، شعر برهبة عظيمة وبشيء يهز كيانه هزاً عنيفاً!

هذا المسجد، هو الذي جمع النواة الاولى للإسلام، ورباها على خير يد، وعلمها على خير كتاب، واخرجها اخراجاً متيناً، وصاغها صياغة رائعة.. في دينها، في عقلها، في علمها في اخلاقها.. تلك الامة العظيمة التي اجمل القرآن وصفها باوجز لفظ واعجزه: ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس**﴾.

obeikandl.com

ونـزل الخـطيب . . شاب قصير نحيف اسمر، يضع نظارات شمسية على عينيه . ووقف يؤم المصلين .

وانتظمت الصفوف لأداء الصلاة .

وأخذ اسماعيل يرتجف . .

وراحت الدموع تتساقط من عينيه، وهو يستمع إلى قراءة الامام للقرآن . . بل راح يبكي بصوت لم يستطع حبسه!!

ومن ذلك اليوم راح يصلي . . ويتعلم أحكام الوضوء والصلاة والصيام . .

ووقـع في أخـطاء كثيرة قبـل أن يتقن الصلاة . استوقفه أحد المصلين مرة . . بعد صلاة العشاء وقال له بصوت كالهمس :

ـ أنت لم تتم الصلاة .

قال :

ـ صليت مع الإمام .

قال الرجل :

ـ ولكنك صليت ركعة واحدة .

ـ سلمت عندما سلم الامام .

فتبسم الرجل وقال :

ـ ولكن الامام صلى أربع ركعات، أما أنت فصليت ركعة واحدة .

سكت اسماعيل قليلا ثم هز رأسه وقال :

ـ هذا صحيح .

ـ إذا أدركت ركعة أو ركعتين مع الإمام فلا تسلّم إذا سلم الامام، وانما عليك ان تقوم فتكمل ما فاتك .

- فهل أعيد الصلاة؟

- لا . . ولكن تكمل الركعات الثلاث التي فاتتك.

وصلى مرةً في جامع الوزير، المطل على دجلة، فاستوقفه بعد الصلاة، رجل مسن يعتمد على عصا، فصاح به:

- كيف صليت؟

أجاب:

- صليت كما صليتم.

- أنت خالفتَ الامام.

قال:

- لأنه ركع قبل ان اقرأ سورة الفاتحة.

فصاح الرجل المسن بغضب:

- تركع معه.

- دون أن اقرأ سورة الفاتحة؟!

- تركع معه.

وتجمع حوله عدد من المصلين، وأقبل الامام، شاب ابيض، بلحية سوداء خفيفة تزَين وجهه، وقال بأسلوب المعلم الفاهم القدير، موجهاً كلامه الى الجميع:

- انما جعل الامام ليؤتم به . .

فاذا ركع الامام، فعليك ان تركع . . اي ان تدخل الصلاة بتكبيرة الإحرام، ثم تكبر مرة ثانية وتركع. فإذا رفع رأسه، فعليك ان ترفع رأسك، ثم تتم معه الصلاة . .

في تلك الفترة، شعر كأنه يعيش في مهرجان!! العالم من حوله

obeikandl.com

جميل باهر رائع . .

الكون بنظامه الدقيق العجيب الذي لا تمل العين من النظر إلى جمـالـه المتجـدد، وروعتـه وايحاءاته ومناجاته وهمساته الشمس بضيائها الجاهر.

والقمر بنوره الساحر.

والليل بنجومه التي تهمس بكلام خفي يشي بعظمة خالقها!

الحياة بدت له غير الحياة التي كان يحياها . .

كل شيء ينطق بعظمة الله خالق الكون ومبدعه.

كل شيء . . كل شيء . .

حتى أنسام الفجر الندية . .

حتى ابتهالات العندليب الشجية . .

حتى ابتسامات الزهور الرضية . .

حياة كلها فرح وود وانس وابتسام!

ومضت شهور . .

وشهور . .

وهو يزيد ولا ينقص.

وهـو يحلق في آفاق عالية من العلم والمعرفة والقرب من الله تعالى . . يحلق بروحه وقلبه في رياض نضرة وحدائق غناء!

ومضت سنـة . . وبعض السنـة، وهو يتقلب في تلك الجنان الـوارفة، ذات الرحمة الفائضة . . وهو يتجه بكل قلبه الى الله . . يطلب رضاه . .

ولكن . .

فجأة . .

وبدون مقدمات . .

شعر بشيء غريب يغزو نفسه وقلبه!!

يدٌ آثمة ملوثة شوهاء قبيحة تحاول زعزعته!!

شيء في أعماقه . . في قلبه . .

شيء أهون منه سياط الجلادين وتعذيب الظالمين!!

قبضة آثمة قبيحة تمسك بشجرة الايمان من اصلها، فتهزها بقوة تحاول اقتلاعها!!

كلمات كلها كفر وفسوق ومروق ومعصية . . تقذف في قلبه!!

خواطر قذرة . .

تصورات قبيحة . .

القاءات ساقطة . . أقل ما فيها يستحق الخلود في نار الجحيم!

بل السقوط من السماء إلى الارض . .

بل النار . .

بل العذاب . .

بل الموت . .

والموت مهما كان شكله ونوعه . . أهون وأهون ألف مرة منها . . !

يا رب!!

يا رب!!

كانت الخواطر القبيحة الكريهة تزداد . .

وإلقاءات الكفر والمعصية تغزو قلبه وتهز شجرة الايمان بقوة

وقسوة!، فتحرمه لذة الصلاة الهادئة المطمئنة!.

كان يحاول دفعها بكل ما يستطيع من جهد.. فلا تزداد الا عنفا وقسوة وضراوة!!

كيف يداوي ما به؟

اي طبيب حاذق يستطيع ان يصف علاجاً لحالته؟!

وتمنى لو استطاع أن يرى الرجل الذي ارشده الى الصلاة.. كيف يستطيع الوصول اليه؟

وذهب الى امين المكتبة، فسأله عنه..

- انه يتردد احياناً..

- متى؟

- عندما يحتاج الى كتاب نادر.

انقلب ذلك الهدوء الذي كان يعيشه..

تلك الجنة الوارفة الظلال ذات الروح والريحان..

ذلك النبع الرائق الذي كان يغرف من مائه العذب..

ذلك المرجان..

مهرجان الانس والجمال..

كل ذلك قد تغير!!

انقلب الى نار تلتهب في أحشائه.

إلى سياط تلذع كل موضع من جسده.

الى يد شوهاء قبيحة تمسك بشجرة الايمان وتهزها بعنف تريد اجتثاثها من أصولها!!

لو القي من السماء الى الأرض..

obeikandl.com

لو هوت به الريح . .
لو مزق قطعاً قطعاً . . لكان أهون عليه!
يا رب . .
يا رب . .
أنت قلت وقولك الحق : ادعوني أستجب لكم .
كان يقرأ أن رجلاً من الصالحين . . من العلماء . . كان يذهب الى المساجد الخربة ، فيسجد لله . . يمرغ وجهه بالتراب ويدعو:
ـ اللهم يا معلم ابراهيم علمني . . يا مفهم ابراهيم فهمني .
وراح يستجير بالله تعالى . . يصرخ بكل قلبه في قلبه :
ـ يا منقذ ابراهيم من النار أنقذني . .
ـ يا منجي موسى من الغرق نجني . .
أخذ يشعر بأن جميع المصلين افضل منه . .
بل اي احد من الناس . .
حتى الفاسق . .
حتى الفاجر . .
افضل وافضل منه بكثير! !
لمن يشكو . . ؟
لمن يبث أحزانه . . ؟
لمن يبث همومه . . ؟
من يستطيع أن يداوي جراحه التي تنزف من الداخل؟
وفي ليلة . .
كانت السماء ترتدي حلة بيضاء نقية رقيقة رائعة . . والقمر يبدو

ضاحكاً فرحاً مرحاً يداعب الغمام بخفة ومهارة. والأرض تنتظر بلهفة قطرات من المطر تبلل بها قلبها الظامىء!

في تلك الليلة ذهب إلى جامع الامام أبي حنيفة لأداء صلاة العشاء. كانت صلاة الجماعة قد فاتته، ولم يبق في المسجد غير عدد قليل كانوا يؤدون سنة العشاء وصلاة الوتر فرادى. ولكنه شاهد في الناحية الخافتة من الضياء، في الجانب الأيمن من المنبر، شاهد ثلاثة رجال يؤمهم شاب في مقتبل العمر، يؤدون صلاة العشاء جماعة.. فاسرع يلتحق بهم..

الله اكبر..

كانت قراءة الشاب هادئة خاشعة ندية، تتناسب والسكينة التي تعم المسجد. في نبرات صوته رعشة تهتز لها القلوب..

كان يقرأ وكأنه قد غاب عن الدنيا، وحلق عالياً عالياً.. مع الملائكة في الملأ الأعلى!

وقف اسماعيل خلف الامام، وراح ينصت مأخوذاً الى كل كلمة من القرآن الكريم. وشنت الخواطر الظالمة هجمة على قلبه المكدود الذي راح يقاوم ويدافع بكل ما بقي لديه من قوة وعزم وثبات!

وكان الامام الشاب، يقف عند كل آية، وقد يعيدها ويرددها أكثر من مرة..

﴿ووضع الكتاب فترى المجرمين مُشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها، ووجدوا ما عملوا حاضراً، ولا يظلم ربك أحداً﴾.

وراح الإمام بصوته الهادىء الخاشع الحزين المرتعش يرددها:

﴿. . مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها﴾؟!

وشعر اسماعيل كأنه يقف مع المجرمين. .

بكل الخواطر السيئة الظالمة التي أثقلته.

مع المجرمين. .

في محكمة لا يتطرق إليها زيف ولا غش ولا خداع ولا تضليل!!

لا. .

لا شيء من خداع الدنيا وزيفها وتدليسها!!

ولا يظلم ربك أحدا!!

وانفجر اسماعيل بالبكاء. . لقد شعر كأنه يبكي بكل كيانه بكل مشاعره. . بكل نبضة من نبضات قلبه الثابت في وجه الأعاصير الهوجاء!

ومضت فترة قبل أن تهدأ نفسه. .

وسلم الامام. .

ولم ينتبه الى الصف الطويل من المصلين الذي انتظم الى جانبه.

ونهض المصلون يريدون الخروج من الحرم. وراح الخادم يطفىء المصابيح يستعجلهم للخروج. فلا أشق على خدم المساجد من بقاء المصلين لحظات قليلة بعد الصلاة المكتوبة!!

وفي الساحة المكشوفة من الجامع. .

التقى وجهاً لوجه مع الأستاذ!!

مع الرجل الذي رآه في مكتبة المجمع العلمي . .

فسلم عليه . . وصافحه . .

وكان الرجل قد سمع بكاءه . .

فسأله عما به . .

ـ إنني في أسوأ حال .

إنني أعاني من بركان أسود يلتهب في داخلي .

خواطر دنيئة قبيحة قذرة كافرة . . تقذف في صدري .

هجمة سوداء شوهاء ظالمة تريد أن تجتث شجرة الايمان من قلبي .

فتبسم الرجل . .

وقال بلهجة الطبيب الحاذق الواثق المطمئن :

ـ ذاك محض الايمان . .

وفغر اسماعيل فاه دهشة ! !

وأراد أن يتكلم . .

ولكن الأستاذ مضى يقول ، وابتسامة مشرقة نيرة تطوق فمه :

- إن الشيطان قد يئس منك ، فلم يستطع جرك الى حظيرته . . الى ما كنت عليه قبل ان تصلي . يئس من جرك الى الكفر والمعصية . . يئس من اشغالك بما لا ينفعك . . فلجأ الى هذه الطريقة الخبيثة ! !

اخذ يلقي في قلبك ما يجعلك تظن انه منك وليس منك . .

لكي تترك الصلاة . .

لكي تسير مع التيار البعيد عن الله !

ان الشيطان كاللص . .

انه لا يسطو الا على البيوت العامرة!

اما البيوت الخربة، فلا يلتفت اليها . .

ولا يشغل نفسه بها!

وانت تحمل كنزاً ثميناً نفيساً . . غالياً . . الايمان!!

اعظم ما يتمناه الناس في الآخرة!

فلا تلتفت اليه . .

ولا تشغل نفسك بإلقاءاته الخبيثة .

فانه كالكلب . .

اذا لاحيته . . ازداد إصراراً وعناداً ونباحاً . .

أما اذا تركته . . فلم تلتفت اليه . .

كف عنك . وعاد يجر أذيال الخيبة والهزيمة والخذلان!! ردد كثيراً:

﴿رب إني مسَّني الضُرُّ وأنت أرحم الراحمين﴾ .

كانت الغيوم الخفيفة الشفيفة البيضاء قد غطتها غيوم اكثف منها، راحت ترسل بكل لطف وراحة نثاً خفيفاً سمحاً . .

وتنفس اسماعيل ملء صدره . .

وشعر كأن دواءً دافئاً حياً سرى في كيانه فدفع الاوضار والاقذار والقاها بعيداً عن قلبه . . !

الحمد لله . .

يا ربي لك الحمد عدد خلقك ورضىٰ نفسك وزنة عرشك ومداد كلماتك .

obeikandl.com

كان يريد زيارة صديقه عبداللطيف ابي سعد، في مجلة السفينة، خلف معمل صالح افندي.. ولكنه وجد نفسه، دون ان يدري، يسير على السدة المحاذية لدجلة.. على «الكورنيش» في جو ساكن ساجد..

النهر الهادىء الهامس عن يمينه..

والبيوت الساكنة الناعسة عن شماله..

والقمر يحاول بلطف ان يجد فجوة يطل منها عليه..

والنث لم ينقطع..

وأغنية خفيفة حبيبة مرحة يهمس بها مذياع من احد البيوت القريبة: «ما احلى الرجعة بكير».

بل ما احلى العودة الى الله..

الى الايمان..

الى الراحة والاطمئنان..

الى الروح والريحان!!

ومنذ تلك الليلة، بدأت الحملة الشوهاء على قلبه تخف، وراحت جيوش البغي تتراجع.. فانزاحت الغيوم السوداء عن سمائه، وارتفع القمر منيراً ساطعاً فرحاً في نفسه.. وعاد يعيش في مهرجان.. اجمل واعظم وافخم مما كان يعيش من قبل!! وتمثل حقيقة قول ذلك العارف «الجنيد البغدادي»:

ـ اننا نعيش في سعادة لو علمها ملوك الارض لقاتلونا عليها.

في تلك الفترة، قامت في نفسه رغبة قوية ملحة في اداء فريضة الحج. كان قد التقى بالسيد أحمد رمضان صاحب محل لكي

الملابس قرب مدرسة التربية الإسلامية في الكرخ، وبعد حديث سأله اسماعيل:

ـ هل تصلي؟

فأجابه باعتزاز:

ـ نعم.. وقد ذهبت العام الماضي الى الحج.

ثم اضاف ينصحه:

ـ اذا اردت ان تذهب الى الحج فاذهب وانت في عز شبابك.. فان اعمال الحج كثيرة ومتعبة!

وازداد رغبة ولهفة وشوقاً الى الحج، عندما التقى بصديقه احمد عبدالكريم محمود، في مقهى ابراهيم عرب في الكرنتينة. كان هذا كافراً كفراً قبيحاً.. لا يؤمن باله ولا رب ولا دين ولا نبي مرسل ولا كتاب منزل!! كان قد أخذ بآراء ونظريات وأفكار أئمة الكفر دون تحكيم عقل أو علم او منطق!!

كان ذلك في ليلة النصف الثاني من رمضان.. كان ماراً بسرعة امام مقهى ابراهيم عرب، عندما سمع احمد يناديه. كان جالساً على اريكة على الشارع العام، فاسرع اليه، وسلم عليه:

ـ كنت اظن انك لم تعد من امريكا بعد.

فضحك احمد ضحكة متقطعة ساخرة، وقال وهو يحرك يده اليمنى بصورة دائرية:

ـ ان معلوماتك قديمة.

ثم اضاف وهو يدعوه الى الجلوس:

ـ اجلس.. إلى اين انت ذاهب.. اجلس.

فجلس الى جانبه وسأله:

- اين كنت اذن؟

- ذهبت الى امريكا والمانيا وفرنسا، وزرت اسبانيا ثلاث مرات. وكنت ارغب في الذهاب الى اليابان.

- فأنت رأيت نصف العالم.

- نعم.

- وتعلمت أربع لغات.

- انا اجيد الانكليزية قبل أن أسافر الى امريكا.

- هل كانت آخر سفرة لك الى اسبانيا؟

- لا.. كانت الى السعودية.

فقهقه اسماعيل ضاحكاً:

- انت تذهب الى السعودية؟!

- نعم.

- ذهبت معلماً.

- نعم.

- هناك يفرضون على المعلمين المسلمين الصلاة.. فكيف استطعت ان تتخلص؟

- كنت اصلي.

- بلا وضوء؟

- لا تجوز الصلاة بلا وضوء.

هتف اسماعيل مستغرباً ومندهشاً:

- انت تصلي؟

- نعم.

obeikandl.com

ـ اخشى ان تقول لي انك تبت؟

ـ نعم.

ـ أنت تتوب؟

ـ نعم.

ـ أنت؟!!

فتبسم احمد.. وكان قصيراً نحيفاً اسمر، بانف صغير ووجه لطيف وابتسامة ساخرة لا تفارقه:

ـ انا نفسي لم اكن اصدق لو قال لي احد يوماً انك ستتوب.. ولكن رحمة الله انقذتني مما كنت فيه.

الحمد لله.

ـ كيف حدث ذلك؟!

وراح الاستاذ احمد عبدالكريم محمود يتحدث، بوجهه الاسمر الصغير، وشعره القصير، باسلوبه الجذاب، باشاراته بيده التي يرفعها بين لحظة واخرى الى انفه الصغير. واسماعيل ينظر اليه.. متعجباً.. مندهشاً.. مردداً مع نفسه سبحان الله..

سبحان مقلب القلوب من حال الى حال!!

ـ بعد مجيئي من اسبانيا بأقل من سنة، التقيت بابي علي، حسين ابن نورية الخستة (المريضة).. الطويل الابيض ذي العيون الصفر..

ـ الذي كان معك في الاحتياط.

ـ نعم.

ـ عرفته.

ـ قال لي : ما رأيك في ان نقضي الصيف في الاسكندرية . نستأجر شقة لمدة شهر واحد . . نفسق ونفجر فيها!؟

راقتني الفكـرة، ورجـوت ان اتخلص من الجـو الحار الذي يداهم بغداد في الصيف، وان ازور قطراً عربياً بعد ان زرت عدداً من الاقطار الغربية . حصلت على تأشيرة السفر الى مصر، وقطعت تذكـرة للسفـر الى القاهرة . وعندما خرجت من مكتب الحجز في السعدون، التقيت بالسيد عدنان عبدالمجيد خريج كلية الشريعة . .

فسألني :

ـ هل ستسافر الى السعودية؟

قلت :

ـ لا . . بل الى مصر.

فقال، وهو يحاول ان ينهي الحديث لانه كان مستعجلاً :

ـ السعودية تطلب مدرسين . . وانت خريج كلية الآداب وتستطيع ان تقدم .

ثم تركني ومضى مسرعاً .

فكرت في كلمات عدنان . .

لم لا اقدم . .

اقضي سنة او سنتين، اجمع فيهما مبلغاً محترماً اسافر به الى النصف الثاني من الكرة الارضية . . الى اندنوسيا الى الصين . . الى الفلبين . . الى كوريا . . الى اليابان .

وعرضت الفكرة على اصدقائي الذين كنت التقي معهم في هذا المقهى . فأيدوا الفكرة . . وشجعوني . . ولكن اباعلي صرخ قائلاً :

ـ والاسكندرية؟

قلت:

ـ ساقدم الطلب غداً، ثم نسافر الى الاسكندرية، وعندما نعود، سارى اذا كان الطلب قد قبل ام لا.

وفي اليوم التالي قدمت الطلب الى السفارة السعودية في بغداد، فاستقبلني هناك، شاب طويل نحيف اسمر، يتكلم اللهجة العراقية بطلاقة.. واكد لي قائلاً:

ـ اعتبر طلبك مقبولاً.

سألته:

ـ هل اراجع بعد شهر؟

فتبسم، وقال مؤكداً:

ـ اعتبر طلبك مقبولاً.

ثم اضاف:

ـ راجع بعد اسبوع.

وسافر ابوعلي الى القاهرة.. وظلَّ احمد ينتظر النتيجة. وفي هذه الفترة قام في نفسه صراع خفي.. سيذهب الى الارض التي ظهرت فيها اعظم حركة في التاريخ.. اعظم دعوة نشرت لواءها على الدنيا.. دعوة عظيمة نظيفة دون كبر ولا ظلم ولا غرور!

وظهر اسمه في قائمة المقبولين، فحول التذكرة التي كان قد قطعها الى القاهرة.. الى جدة..

وبسرعة.. وبلا شعور.. احتدمت في نفسه معركة هائلة بين

الكفر والايمان! . . بين الزيغ والاسلام! . وعندما حلقت به الطائرة من بغداد في طريقها الى جدة، امتلأت نفسه بشيء يعجز اللسان عن وصفه . .

شعـر بشـوق مبرح راح يتزايد كلما اقتربت من جدة . . شوق لزيارة الرسول العظيم ﷺ .

ونزل في جدة .

ووقف يتنسم عطر الارض التي اخرجت منها خير امة على كل التاريخ ! !

لعل احداً من ركاب الطائرة لم يشعر بعشر ما كان يشعر به!

ومن جدة، ركب سيارة الى المدينة المنورة بنور صاحبها ﷺ . . المسافة اكثر من اربعمائة كيلومتر . . انه يريد ان تقطع في ساعة . . في دقيقة . . في لحظة . . واللحظة كثير! ! .

لقـد القى بكل الادران التي اثقلته وكبلته وحجبت عنه النور العظيم . . القاها في مطار بغداد .

وجاء خفيفاً . .

سريعاً . .

تحمله اجنحة الحب والشوق واللهفة الى الحبيب . .

الى استاذ الانسانية . .

الى معلم الناس الحق ودالهم على الخير . .

الى النبي لا كذب . .

الى ابن عبدالمطلب ﷺ .

في مدينة الحبيب . . القى متاعه في اقرب فندق الى المسجد

النبوي. وهرع اليه.. كان قلبه يسبقه.. كانت روحه تحلق امامه وهو يطير خلفها..

وشعر بهزة عنيفة وهو يضع اول قدم على باب المسجد..

وهجم عليه البكاء دفعة واحدة..

وارتفع بقلبه الذي اغرقته الدموع.. الى السماء..

وهتف بكل جوارحه:

- يا رب.. يا رب..

يا رب تبت اليك..

يا رب جئتك تائبا فلا تردني خائباً!

لا.. ان الله لا يرد عبده..

بل يستقبله..

يرحب به..

يفرح بتوبته..

يلقي عليه من حلل كرمه وعفوه ومغفرته.. وحبه وحنانه!

يا الله..

وارتفع صوت المؤذن..

انه بلال..

لا.. انه مؤذن النبي..

انه مؤذن المسجد النبوي.

واقيمت الصلاة..

ووقف يصلي..

لقد نسي كيف يصلي..

obeikandl.com

ولكنه وقف مع الحشد الكبير من المصلين.. مع الصفوف المستقيمة المتراصة..

لعل المسجد لم يسع قلبه الذي طفح بالحب لله.. للنبي.. للاسلام..

ولكن رحمة الله وسعته!!

ومضت ايام كأنها احلام.. وتعلم الصلاة.. وذهب الى مكة لأداء العمرة. ومن ذي الحليفة انخلع من ثياب الدنيا ولبس ثياب الآخرة!

وطاف بالبيت سبع مرات..

وسعى بين الصفا والمروة سبع مرات..

ثم حلق شعر رأسه..

وراح يفكر في كل خطوة..

بل لا يفكر في اي خطوة..

فليس المجال مجال تفكير او تعليل..

انه يريد ان يعيش اجمل ما في هذه اللحظات واسعدها واحلاها!!

في هذا البيت طاف الناس من يوم رفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل..

﴿ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾.

ومن يوم ارتفع صوت ابراهيم في الناس بالحج..

والوفود لا تنقطع..

والملايين يتدافعون..

لبيك اللهم لبيك . .

واقبل الناس على اقدامهم . . على خيولهم . . على بغالهم . !

في البر . .

في البحر . .

في الجو . .

كلهم . . كلهم يهتفون بقلب واحد . .

بلسان واحد . .

بهدف واحد . .

ـ لبيك اللهم لبيك . . لا شريك لك لبيك .

انها الوحدة الكبرى . .

انه الهدف العظيم . .

انها الامة الواحدة . .

ان الحمد والنعمة لك والملك . . لا شريك لك .

كان الاستاذ احمد يتحدث بلسان الرهبان والصالحين . . بلسان الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار .

ولم ينتبه اسماعيل الى العامل الذي وضع امامه كأس الشاي على منضدة صغيرة وهو يقول :

ـ تفضل «عمي» .

وكان العامل طويلاً نحيفاً حفيف الشارب حليق اللحية ، يرتدي قميصاً احمر وسروالاً ضيقاً اسمر ، ويضع قبعة صغيرة من النوع الذي يستعمله الرياضيون في سباق الدراجات الهوائية على رأسه .

obeikandl.com

والتفت الاستاذ يسأل اسماعيل:

ـ اين تشتغل الآن؟

ـ لا اشتغل.. ولكني افكر في البحث عن وظيفة.

ولكن الاستاذ احمد لم يسمع الجواب، فقد مرَّت سيارة مصلحة بسرعة صاروخية، وقد وقف الجابي قرب الباب وراح يضغط على الجرس كلما اقتربت من احدى المحطات فتنطلق السيارة لا تلتفت الى احد من الناس الذين اضناهم الانتظار!!

وحرك احمد يده بصورة دائرية. ثم اخذ نفساً طويلاً حزيناً، ورجع بظهره الى الخلف. بينما راح اسماعيل يشرب الشاي ويفكر في العرض الشيق الممتع المؤمن الذي سمعه من الاستاذ أحمد!

قال الاستاذ احمد بصوت خفيض:

ـ انني احاول ان احفظ القرآن.

ـ هل بدأت بالجزء الأول؟

ـ بل بدأت بالجزء الاخير.. بقصار السور، لانها تستعمل في الصلاة.

ـ كل القرآن يستعمل في الصلاة.

هز الاستاذ احمد رأسه موافقاً، ثم قال:

ـ ان بعض السور تتفلت مني، كلما حفظتها اعود فأنساها.. هكذا الانسان.. اذا تقدم به العمر قلَّ حفظه وكثر خلطه!.. خير للمرء ان يستفيد من شبابه.

ثم نهض وهو يقول:

ـ هل نذهب؟

ثم اشار بيده الى العامل، فأقبل سريعاً:

ـ نعم «عمي».

فناوله ربع دينار وهو يقول:

ـ هذا لك.

ـ اشكرك «عمي».

ثم ناوله درهماً:

ـ وهذا لصاحب المقهى.

وفي الطريق الى باب المعظم.. قال الاستاذ احمد:

ـ اريد ان اشتري شيئاً للسحور.

ثم اضاف وهو يضحك ضحكته الساخرة:

ـ لا يصوم احد في البيت غيري.

لم تكن المسافة بعيدة بين مقهى ابراهيم عرب وباب المعظم، حيث تقف سيارات مصلحة نقل الركاب ذات الطابق الواحد، وذات الطابقين. وكانت طريقة الاستاذ احمد ان يسير متأنياً، وان يقف كلما اراد الحديث. وامام الجانب الشرقي للمدرسة الغربية المتوسطة، المقابل لكلية الهندسة، وقف رجل قصير هزيل خائف يرتعد! كان شعر رأسه ولحيته وشاربه مهملاً، وقميصه ممزقاً، وسرواله متربا!!

وقف الرجل في الجانب المظلم من الشارع، ومد يده بخوف وتردد وراح يطلب الصدقة!. وقف الاستاذ احمد ينظر إليه، وأراد ان يسأله قبل ان يضع في يده درهما:

ـ من اين انت؟

جفل الرجل . .

وتلفت يمنة ويسرة كأنه مطارد . . وقال :

ـ انا . . لا . . انا . .

واراد الاستاذ احمد ان يساعده ويستحثه :

ـ هل انت من مصر؟

فتراجع الى الخلف مذعوراً، ورفع يديه كأنه يتقي ضربة، او يخشى ان يرفع فيضرب بالارض :

ـ لا . . لا . . لا والله . . لا والله .

وتعجب الاستاذ احمد، والتفت الى اسماعيل :

ـ انه خائف . . لماذا يفعل هكذا؟

ـ لا . . لست خائفا . . ارجوك . . لست خائفاً . . انني .

قال الاستاذ احمد بهمس :

ـ انه مجنون .

ـ نعم انا مجنون . . انني فقير . . ارجوك .

مد الاستاذ احمد يده بالدرهم وسأله :

ـ ما اسمك؟

فاطلق الرجل ساقيه للريح، واندفع في الشارع الجانبي المؤدي الى شارع الامام الاعظم وهو يردد :

ـ لماذا تسألني . . لماذا؟! . . .

وقفنا لحظات لا ندري ما نقول . . ثم سرنا صامتين نفكر في شأن الرجل المرعوب، حتى وصلنا الى منطقة وقوف سيارات

المصلحة في باب المعظم. وهناك دخل الاستاذ احمد مطعماً ليشتري طعاماً للسحور. . ولكنه قبل ان يدخل وقف لحظات، وكأنه وصل الى نتيجة:

ـ انه من شعب مضطهد. . مهزوم!

ثم اضاف بعد ان اخذ نفساً محرقاً:

ـ هكذا يريد اعداء هذه الامة ان نكون!

★★★

اسرع اسماعيل فقفز الى سيارة المصلحة رقم عشرين بعد ان ودع الاستاذ احمد، وانطلق الباص سريعاً. . لا يقف في منطقة، ولا يحمل احداً، وقطع المسافة من باب المعظم الى المأمون في عشر دقائق. . ولم يدر اين القاه الباص!!

ووقف يتلفت. .

لقد اصابه الدوار. .

ان بيته لا يبعد كثيراً عن بيت الاستاذ شاكر المفتي. . وهو قريب من بيت السيد فائق عبدالعزيز. .

ولكن اين هو الآن؟

اين يقف؟

وقف في مكانه، وأغمض عينيه، ورفع يديه الى رأسه كالذي يشكو من صداع حاد. . وبعد لحظات فتح عينيه. . ورفع رأسه الى السماء. لم ير القمر بهذا الصفاء والنقاء من قبل. . لقد اضفى البدر على السماء حلة رائعة من نوره، فبدت زاهية فرحة ضاحكة.

واستطاع ان يرى على بعد مائة ذراع جامع المأمون!

عليه اذن ان يعود الى الوراء ليصل الى البيت!.

وفي طريق عودته، راحت كلمة الاستاذ احمد تطرق قلبه:

ـ انني احاول ان أحفظ القرآن.. خير للمرء ان يستفيد من شبابه!

انا ايضاً لم احفظ كثيراً..

سور قليلة قصيرة من الجزء الاخير.. وآيات متفرقة..

كيف لو مت؟..

ماذا ساقرأ في الآخرة؟

هل اقول رب ارجعون لعلي احفظ القرآن؟!

سابدأ من هذه الليلة..

سأحفظ القرآن، ومعاني القرآن.

ولكن لا..

سأذهب الى الحج اولاً، وعندما اعود بعد عيد الاضحى ابدأ بحفظ القرآن!

ولكن من يضمن ان اعيش حتى اذهب الى الحج؟!!

سابدأ بحفظ القرآن..

وسأذهب الى الحج ان شاء الله.

سأشرب من ماء زمزم..

اشرب للتقوى..

واشرب للعلم..

واشرب للعمل..

وزمزم لما شرب له!!

★★★

obeikandl.com

وذهب الى الحج . .

في سيارة صغيرة بيضاء يقودها الحاج عبدالهادي السامرائي ومعه الاستاذ احمد، والاستاذ طالب الشيخلي . .

ووقف على عرفات . . يهتف مع الحجيج :

ـ لبيك اللهم لبيك . .

وبعد المغرب . .

ومع نفرة الحجيج الى مزدلفة . .

اقبلت من جهة البحر غيمة خفيفة سريعة ولهى . . تحملها اجنحة الملائكة . .

تدفعها انامل الحب والشوق الى حجاج بيت الله .

فانهم لن يعودوا الى هذا المكان الا بعد عام!

ووقفت فوق عرفة تودعهم . .

وتفجرت اشواقها . .

فتساقطت دموعها غزيرة حبيبة . . عطرة . .

وامتلأت عيون الحجاج بالدموع . .

دموع الحب . .

دموع التوبة . .

دموع الندم . .

دموع العودة الى الله بقلوب تهتف بصوت يتجاوز عنان السماء . . لبيك اللهم لبيك .

لبيك لا شريك لك لبيك . .

ان الحمد والنعمة لك والملك . .

لا شريك لك .

obeikandl.com

ولم يستطع الاستاذ طالب ان يسيطر على عواطفه، بعد ان طفحت كأسه، وتبددت مشاعره.. فهتف بكل قلبه.. وكل صوته:

ـ الله اكبر.. الله اكبر..

وراح الحجاج يرددون وراءه:

ـ الله اكبر.. الله اكبر..

ثم انقطع المطر..

واندفع الحجاج نحو مزدلفة..

وقبل ان يجتاز اسماعيل حدود عرفة.. شاهد كما شاهد غيره من الحجاج.. ان المطر لم يتجاوز حدود عرفة!!

يا معجزة الاسلام الخالدة!!

آلاف وآلاف الحجاج يسيرون على الاقدام يقطعون مسافة عشرة آلاف ذراع الى مزدلفة.. ثم اقل منها الى منى!!

الاطفال..

والشبان..

والشيوخ..

والنساء..

النساء اللاتي لا تستطيع الواحدة منهن ان تقطع في بلدها الف ذراع سيراً على قدميها.. تقطع هنا اربعة عشر الف ذراع وهي راضية..

وهي فرحة..

وهي سعيدة..

وهي ترجو رحمة الله ومغفرته ورضوانه!

obeikandl.com

هذه البقعة الطاهرة اقبل اليها الناس من كل مكان . .

من كل بلد . .

من كل لون . .

من كل جنس . .

من كل لبس . .

من كل لسان . .

بكل جنان . .

تهتف بكل حب ولهفة وشوق :

ـ لبيك اللهم لبيك .

★ ★ ★

وعاد الحاج اسماعيل . .

عاد يقرأ القرآن من جديد . .

كان يسمع ولا يسمع . .

وكان يقرأ ولا يقرأ . .

وكان يرى ولا يرى . .

صار يقرأ القرآن بتدبر، وصار يسمع فيعي ما يسمع ، وصار ينظر فيرى حكمة الله وقدرته وعظيم صنعه في كل شيء!!

وتمنى لو يرى الناس ما يرى . .

لو يسمعون ما يسمع . .

لو يدركون ما يدرك . .

لو يقرأون القرآن كما يقرأ . .

لو تفتحت نوافذ قلوبهم للسماء . . للضياء . .

obeikandl.com

لرحمة الله الندية . .

لعطاياه السنية . .

لو عادوا الى الله . .

. . . . . .

obeikandl.com

١١ - القَرار ...

obeikandl.com

نظر الحاج اسماعيل الى ساعته وقال:

ـ انها الخامسة.. يجب ان اصلي العصر.

ثم نهض وراح يقيم الصلاة.. فلما انتهى منها وأراد ان يكبر، قال المدير:

ـ انك لم تتيمم.

التفت اليه الحاج اسماعيل واجابه:

ـ تيممت عندما صليت الظهر..

ثم اضاف:

ـ انما ينتقض التيمم بما ينتقض به الوضوء.. مضافاً اليه وجود الماء واستطاعة الوصول اليه.

ثم رفع يديه متجهاً الى القبلة:

ـ الله اكبر.

كان سبتي يدندن مع نفسه وقد حوّل يده الى مفتاح الطابق الارضي وراح يضغط عليه بلطف:

ـ غنيت مرة الصبح.. للطير والبلبل..

كان السيد صبحي جالساً في الزاوية، أسيفاً حزيناً، وقد احمرت عيناه من كثرة البكاء!

ووقف السيد عبدالفتاح، وقد أغمض عينيه وراح يردد بهمس:

ـ عن خاطرك يا ارضنا.. لم يبق في قلبي صبر.. يا ارضنا.

وراح السيد خالد يفكر في امه..

كيف ستعيش مع زوجته؟!

ستطردها!!

ستلقي بها الى الشارع!

كان يصدق جميع الاكاذيب التي تلقيها زوجته..

اخوها زهير ليس استاذاً في الجامعات الامريكية ولا الروسية. انه يشتغل عاملاً في محلات التاجر الدمشقي الحاج محمد خير موسى، في محلة الحريقة المجاورة لسوق الحميدية في دمشق!! أما عماد. فانه يتسكع في شوارع برلين الغربية.. لم يتعلم صنعة، ولم يستمر في عمل!! اما امها التي تصر على ان باريس عاصمة اسبانيا وانها زارتها اربع مرات!! فانها لم تغادر بغداد طيلة حياتها ولم تحصل على جواز سفر!!

اذا كتب الله له النجاة..

اذا فك وثاقه..

سيعيد النظر في حياته..

سيتخذ قراراً قوياً حازماً في كل امر..

آه..

سيعيد النظر في القرار..

لعل افضل عمل يقدمه الى الله تعالى، بعد التوبة وطلب المغفرة.. في آخر عهده بالدنيا.. واول اقباله على الآخرة.. ان يصدر قراراً عادلاً لاحظ فيه للنفس ولا للهوى ولا للشيطان!!

لا بد ان يواجه ربه بقلب سليم..

بعمل نقي..

بصفحة بيضاء!!

عندما انتهى الحاج اسماعيل من صلاته، بقي لحظات يذكر الله في سره. ثم التفت وقال:

ـ لا بد ان نعيد النظر في القرار.

ـ نعم.

قالها الثلاثة بصوت.. واحد!!

جلس مدير الادارة، ومدد رجليه، ووضع الحقيبة السوداء في حجره، ثم فتحها، واخرج الملف الذي يحتوي على نتائج الاختبار والاسماء والقرار. وجلس السيد عبدالفتاح وهو يقول:

ـ هل نعيد النظر في صيغة القرار؟

ـ بل نعيد النظر في الاسماء.. اسماء المرشحين للتوظيف.

أيد المدير قائلاً:

ـ نعم.. نعيد جرد الاسماء.

وهز السيد صبحي رأسه مؤيداً.

قال الحاج اسماعيل:

ـ نضع اوراق الاختبار حسب تسلسل الدرجات. نبدأ باعلى درجة، ثم الادنى فالادنى..

ثم ندون اسماء الاشخاص الذين احرزوها حسب التسلسل السابق.

ثم نناقش كل اسم على ضوء المقابلة التي اجريناها لهم.

تناول السيد عبدالفتاح الملف من المدير، وفتحه وراح يخرج اوراق الاختبار، ويرتبها حسب الدرجات المدونة عليها. فلما انتهى منها، امسكها كما يمسك امين الصندوق النقود بيده، وراح ينظر

الى الدرجات ويقول:

ـ ثلاثة منهم احرزوا ٩٨٪

خمسة احرزوا ٩٣٪

البقية احرزوا درجات متفاوتة بين الستين والتسعين بالمائة.

اربعة احرزوا ٥٠٪

قال المدير:

ـ أعط الاوراق الى السيد صبحي، ليقرأ الاسماء واحداً بعد الآخر، وبعد المناقشة، والاتفاق تدون انت على ورقة بيضاء اسماء الفائزين.

اعتدل السيد صبحي، ومد يده يتناول الاوراق، بينما اخرج السيد عبدالفتاح ورقة بيضاء من الملف وضعها فوقه، واخرج قلماً.. وتأهب والقلم بيده، لكتابة الاسماء التي سيتم الاتفاق عليها.

ومضى الاربعة يعيدون جرد الاسماء.. ويقوّمون كل متقدم للوظيفة، تقويماً جديداً بعيداً عن كل مؤثر غير الله، وابتغاء رضاه! ولم يفز من اصحاب التذاكر والتوصيات غير ثلاثة فقط، وسقط منهم احد عشر كانوا قد احتلوا مركز الصدارة في القائمة السابقة!

وكان سبتي ما يزال واقفاً، ضاغطاً على مفتاح الطابق الارضي بلطف، مدندنا مع نفسه ذلك المقطع من الاغنية، وقد غير المقطع الأول منها:

ـ غنيت عند الفجر.. للطير والبلبل.

بدلاً من غنيت مرة الصبح للطير والبلبل.

وبعد توقيع المحضر الجديد . . امسك السيد صبحي بالقائمة القديمة ومزقها وهو يقول :

ـ يا ام البلاوي .

ولم يشعر اي منهم ، عندما تحرك المصعد هابطاً بهدوء الى الطابق الارضي . .

ثم يفتح الباب ! !

كان مدير الادارة مشغولاً باعادة الملف والاوراق الى الحقيبة عندما خرج سبتي بصورة طبيعية وهو يصيح :

ـ تايه . . تايه . .

رفع اعضاء اللجنة رؤوسهم ينظرون الى الباب المفتوح . . ثم تحولت العيون تنظر في الوجوه . .

وألجمتهم المفاجأة . .

ولم يتمالك الحاج اسماعيل نفسه فخرَّ ساجداً وهو يردد :

ـ الحمد لله . . الحمد لله . الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى .

الحمد لله .

وحاول السيد صبحي ان ينهض ، فلم يستطع الوقوف على قدميه . .

كانت رجلاه تهتزان كالسعفة في يوم عاصف .

وطفرت الدموع من عينيه . .

من الدهشة . .

من الفرحة . .

من المفاجأة ! !

ـ الحمد لله . .

وخرج الجميع وهم لا يصدقون . .

وكـان سبتي قد وجـد الباب الخارجي مفتوحاً، فخرج يصيح بأعلى صوته :

ـ تايه

فاقبل عبود الحارس راكضاً، وعندما رأى اعضاء اللجنة ارتبك واضطرب . . و . . :

ـ استاذ . . اشتريت اشتريت شخاطة . . اردت ان اوقد المدفأة .

ـ اين تايه؟

ـ استاذ . . انت تعلم . . انه في المستشفى .

ـ في المستشفى؟ !

هتف الجميع بصوت واحد .

ـ استاذ . . ضربته سيارة الليلة البارحة . . وضربت عمود الكهرباء .

كان فاقداً الوعي طيلة الليلة الماضية .

ثم نظر الحارس الى السيد عبدالفتاح وسأله بهمس :

ـ اين كنتم؟

فاجابه بنفس الصوت الهامس الذي سأل به :

ـ كنا في الأسر ! !

عندما خرجوا الى الشارع، رفعوا رؤوسهم الى السماء . .

كانت الغيوم تتفرق بعد ان هطلت الامطار بغزارة . .

الارض مبللة . .

والمحلات على الجانبين اضاءت مصابيحها . .

وثلاث فتيات معهن طفل صغير يحاولن العبور الى الجانب الثاني من الشارع .

والسيارات يمرقن بسرعة فيتطاير الماء على الجانبين . . وبعض المارة يسرعون السير يحاولون الوصول الى منازلهم قبل حلول الظلام .

وارتفع من المسجد القريب صوت المؤذن لصلاة المغرب . . وقبل ان يتحركوا . .

التفت اليهم الحاج اسماعيل وقال :

ـ ان غاية ما يتمناه المرء بعد الموت . . ان يعود الى الدنيا فيصلي ركعتين .

وسكت لحظات . . ثم اضاف :

ـ وها نحن قد عدنا الى الدنيا . . كتبت لنا حياة جديدة . .

وهذا اذان المغرب .

لنبدأ صفحتنا بعمل يرضي الله تعالى .

سأل عبدالفتاح :

ـ هل يوجد مكان للوضوء؟

ـ نعم .

قال صبحي :

ـ سأصلي معكم .

قال سبتي :

ـ وانا ايضاً.

وتردد مدير الادارة.. فمشى خطوات.. ثم وقف.. ثم التفت وقال:

ـ انها تنتظرني

لكنه تغلب على تردده.. فتقدم قائلاً:

ـ سأصلي معكم.

obeikandl.com

المحتويات

الموضوع	الصفحة
١ ـ اللجنة	٥
٢ ـ فتاح الفال	٢٣
٣ ـ صلاة العشاء	٤٧
٤ ـ عن خاطرك.. يا أرضنا	٥٩
٥ ـ سنوات الجفاف	٦٩
٦ ـ بنت الخياط	٨١
٧ ـ المدير	١١٧
٨ ـ الندم	١٥٧
٩ ـ الفخ	١٦٥
١٠ ـ في طريق النور	١٩٣
١١ ـ القرار	٢٤٣

obeikandl.com

للمؤلف

جبل التوبة .

حديث الشيخ .

فتاة الجزيرة .

قصة الرجال الثلاثة .

شهرزاد في الليلة الثانية بعد الالف .

المدينة المفقودة .

obeikandl.com